

لوركا

نقد كاعرا الأندلس

أحمد المصطفى

أحمد

لوركا

شاعر الأندلس

تأليف
ماهر البطوطي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الغلاف والاخراج الفنى :

جرجس ممتاز

غرناطة

سنل لوركا يوما عن سقوط الحكم العربى لغرناطة فى عام
١٤٩٢ ميلادية ، فاجاب قائلا :

« - لقد كان يوما أسود ، رغم أنهم يذكرون لنا عكس ذلك
فى المدرسة • لقد ضاعت حضارة مدهشة ، وشعر ، وفلك ، ومعمار ،
ورقة لا نظير لها فى العالم ، وحلت محلها مدينة فقيرة ، خائفة ،
تزخر بطلابى الصداقات ، وحيث توجد الآن أسوأ طبقة برجوازية فى
اسبانيا » •

وتعد هذه العبارات أصدق دليل على مدى تأثير الشاعر الفنان
« فديريكو غرسيه لوركا » بمسقط رأسه وبيئته الغرناطية التى نشأ
فى أحضانها ، بكل ما تنبض فيها من أجواء عربية وأندلسية بقيت
آثارها على مر القرون • ولقد استبانت تلك الأجواء فى شعره وفى
مسرحياته التى استلهم فيها الروح الشعبية فى قرى الأندلس ومدنه
• • ومن غريب الطالع أن يرتبط موت الشاعر فى عام ١٩٣٦ باسم
عربى كذلك ، إذ أن مصرعه الفاجع قد وقع فى بقعة لاتزال تعرف
باسمها العربى وهو « عين الدمعة » بقرية « فرنار » من أرباض
غرناطة • وهكذا كان مولد الشاعر وموته فى تلك المدينة الأندلسية
التي ارتبطت باسمه وأعماله • غرناطة ، تلك المدينة الحبيبة الى
قلب كل عربى • غرناطة ، آخر معقل للإسلام وللعرب فى اسبانيا •
تلك البلدة الجميلة التى تقع أجزاء منها فوق تلال عدة ، وتنبسط
أجزاء أخرى تحت أقدام تلك التلال ، وتمتد فى الغرب منها رقعة
واسعة من الأراضى الزراعية شديدة الخصوبة يغذيها نهرا « حدرة »

و « شنيل » - اللذان تغنى بهما شعراء العرب ثم شعراء الأسبان من بعدهم ومنهم لوركا بالذات - واللذان يستمدان مياههما من ثلوج أعلى جبال المنطقة : « سبييرا نيفادا » ، التى سماها العرب جبال شلير ، وبجوارها جبال البشرات . وتعد تلك الرقعة الزراعية الغرناطية من أخصب المناطق فى البلاد وأكفها زراعة ، وقد قال عنها الرحالة العرب الأولون : انها تفوق غوطة دمشق مساحة وخصبا .

وقد فتح العرب غرناطة فى مطلع غزوتهم الاسبانية ، عام ٧١٢ م ، واتخذوا من موقعها حصنا مكيئا نظرا لما تتمتع به من موقع استراتيجى هام وسط سلاسل جبال منيعة ، وعربوا الاسم الرومانى لها وهو Granada - أى الرمانة ، الذى أطلق عليها لأنها كانت على شكل يعطى للناظر من بعيد هيئة تلك الثمرة - وجعلوه غرناطة . وقد سيطر العرب على كل أجزاء شبه الجزيرة الأيبيرية ماعدا منطقتين : أشتورياس والباسك فى شمال البلاد . وكان فتح الأندلس فى عهد سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك ، وحين قامت الدولة العباسية ، امتد حكم بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل وخلفائه ، الى حين سقوط قرطبة عام ١٠٣١ م . وقد حل محل الأمويين ملوك الطوائف وأشهرهم بنو عباد باشبيلية وبنو جهور بقرطبة وبنو عامر بشاطبة وبنو هود بسرقسطة وبنو حمود بمالقة . ثم جاء عصر دولة المرابطين ، فدولة الموحدين التى امتد عهدها حتى عام ١٢٦٩ . وأما غرناطة فكانت خلال الحكم الأموى تدخل فى إقليم « ألبيرة » ، وبعد سقوط قرطبة استقل بها حاكمها « زاوى بن زيرى » ، وظل يحكمها « بنو زيرى » حتى غلب عليهم المرابطون فالموحدون . وفى أواخر حكم الموحدين ، ظهر « بنو الأحمر » واستقلوا بغرناطة ، وأسسوا فيها عام ١٢٣٨ « مملكة غرناطة » التى قامت لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وشهدت سقوط المدن العربية الأخرى فى يد الأسبان ، الى أن أصبحت آخر مكان حكمه العرب فى اسبانيا .

وكانت مملكة غرناطة لا تضم مدينة غرناطة الحالية وحدها ، بل كان يدخل فيها مدن « ألمرية » و « مالقة » « وجبل طارق » «والجزيرة الخضراء» « ورندة » ، وأعمال هذه المدن وأرباضها . وازدهرت هذه المملكة تحت حكم بنى الأحمر رغم الاضطرابات السياسية فيها وتربص الممالك الأسبانية بها وشيّد الملوك فيها المساجد والقصور وزرعوا البساتين ، حتى أصبحت أيامها من أجمل مدن العالم ، وزارها وتغنّى بها الرحالة العرب مثل « ابن بطوطة » « وابن جبير » . وبلغت المملكة شأوها فى عهد الملك محمد الغنى بالله « (محمد الخامس) حين سطع فى سمائها عدد من الأدباء والشعراء ، على رأسهم الوزير لسان الدين بن الخطيب مؤلف المرجع الأساسى عن المدينة وعنوانه « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وشاعر الأندلس « محمد بن زمرق » صاحب الموشحات الأندلسية .

وتتالى على عرش المملكة بعد ذلك ملوك تراوحوا بين ضعيف وقوى ، الى أن سقطت المملكة فى يد الملكين الكاثوليكين « ايزابيلا وفرديناند » فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، ورحل آخر ملوكها وهو محمد أبو عبد الله ، مع كبار الأشراف العرب ، الى المنفى فى بلاد المغرب العربى .

ورغم مرور مئات السنين على انتهاء الحكم العربى فى غرناطة ، لاتزال المدينة وأرباضها - شأنها شأن مدن الأندلس الأخرى ذات التاريخ الاسلامى العريق كقرطبة واشبيلية - تزدهر بالآثار العربية الاسلامية وتنبىء تحت قشرة الأسماء الأسبانية عن أسماء عربية أو ذات أصل عربى . وأعظم الآثار القائمة بها حاليا وهو قصر الحمراء (AlHambra الآن بالاسبانية) وحدائقه المسماة جنة العريف (Generalife) ، تشكل مع جامع قرطبة ومنارة الخريدة بأشبيلية أعظم الآثار العربية الباقية فى اسبانيا اليوم .

المناخ السياسى والثقافى ونشأة الشاعر

كان مولد شاعرنا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فى يوم ٥ من يونيو ١٨٩٨ . وكان ذلك العام معلما من المعالم الأساسية فى تاريخ أسبانيا ، عسكريا وسياسيا وفكريا ، ففيه ضرب خط فاصل بين ما تبقى من آثار العظمة الامبراطورية التى كانت لأسبانيا وبين صحوتها على الواقع الأليم المريع بزوال آخر مستعمراتها الكبرى فيما وراء البحار . ففى مطلع ذلك العام ، تدهورت العلاقات بين أسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن ثار الكوبيون على الاحتلال الأسبانى لبلادهم ، ومدت الولايات المتحدة يد المساعدة المعنوية للثوار ، وطالبت الصحف الأمريكية بالتدخل عسكريا فى كوبا لنصرتهم ، بيد أن الرئيس الأمريكى آنذاك - وليام ماكنلى - لم ير مبررا لذلك .

ولكن حدث فى ١٥ من فبراير أن وقع انفجار بالسفينة الأمريكية « مين » الراسية فى ميناء « هافانا » ، أفضى الى مقتل ٢٦٠ أمريكيا واتهمت أسبانيا بتدبير ذلك الانفجار انتقاما للدعم الأمريكى للثوار الكوبيين ، فطلب الرئيس الأمريكى الآن من الكونجرس بالتدخل ضد أسبانيا ، فوافق الكونجرس مبينا أنه ليس لأمريكا من هدف وراء ذلك سوى تحقيق الاستقلال الكوبى .

وأعلنت اسبانيا الحرب على الولايات المتحدة فى ٢٤ من أبريل تلاه اعلان الولايات المتحدة الحرب على اسبانيا فى ٢٥ من أبريل . وكان للولايات المتحدة اليد الطولى فى الحرب بسبب أسطولها البحرى المتفوق . ففى ١ من مايو ، دمر الأميرال الأمريكى « جورج

ديوى « الأسطول الاسباني فى مانيل بالفلبين ، مما أسفر عن مصرع ٢٨١ اسبانيا ، بينما كانت خسائر الأمريكيين ٨ جرحى فحسب . وعلى نحو مماثل ، تم تدمير الأسطول الاسباني فى كوبا فى ٣ من يوليو مع خسائر قاذحة للاسبانين . ومع الهزيمة الساحقة التى نزلت باسبانيا فى هذه الحرب القصيرة الآن ، تم فى ديسمبر ١٨٩٨ توقيع معاهدة باريس بين اسبانيا والولايات المتحدة ، التى وافقت اسبانيا بمقتضاها على التخلي عن كوبا ، وعلى أن تتنازل للولايات المتحدة عن بورتوريكو وجوام والقلبين .

وقد أحدثت هذه الهزيمة الميينة رد فعل عنيفا فى أوساط الاسبانين بكل طوائفهم . وكان رد الفعل لدى المفكرين والأدباء صيحة احتجاج قوية ضد الوضع الاسباني السائد فى تلك الفترة ، وضد المناخ السياسى والاجتماعى والفكرى الذى كان يرين على البلاد أيامها . وتمخض هذا الاحتجاج لدى هؤلاء الأدباء والمفكرين عن حركة أدبية أطلق عليها فيما بعد حركة جيل عام ٩٨ . وأبرز شخصيات هذه الحركة هم « أونامونو » و « أثورين » و « باروخا » و « مايتزو » و « أنطونيو متشسادو » . وأعمال هؤلاء الأدباء والمفكرين ، ومنهم الفيلسوف كاوانامونو ، والروائى كباروخا ، والشاعر كمتشادو ، والأديب الجامع كأثورين ، تعتبر ثورة على الواقع الاسباني فى أواخر القرن التاسع عشر ، واقتربا من التيارات الفكرية والثقافية التى سادت أوروبا آنذاك ، وخاصة فى فرنسا وألمانيا . وكانت الحركة الواقعية فى أوروبا - التى اقترنت بالاكشافات العلمية والطبيعية الحديثة - قد أفسحت المجال لردة رومانسية ومثالية تمثلت فى الرومانسيين الجدد .

وهكذا كان الحال مع أدباء جيل ٩٨ فى اسبانيا ، إذ انعكست فيهم روح من المثالية والرومانسية أزاء ما حل بوطنهم من نكسة كبيرة ، وامتزجت تلك الروح بعوامل رومانسية بارزة مثل الكآبة والنزعة الشخصية الحادة . وجميعهم يبدون حبا دافئا لاسبانيا ، بيد أنه لا أحد منهم يقبل تقاليدها ، بل هم يبحثون عن صورة

اسبانيا مختلفة عما ألفوه من قبل عنها ، ولذلك فان معظم أعمالهم تنصب على الروح الاسبانية والتاريخ الاسباني ، والطبيعة في مقاطعات اسبانيا المختلفة . وحاولوا جميعا في أعمالهم تحليل جميع عناصر الواقع الاسباني وتقييمها ، وتصور روح اسبانية جديدة ، وواقع اسباني جديد ، يبرزان من فوق أنقاض الماضي ليشيدوا حضرا ومستقبلا آخرين لبلادهم . ومن ناحية الأسلوب الأدبي ، كان أفراد الجماعة يؤمنون بالعودة الى الأسلوب اللغوي البسيط المجرد من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية . وحاولوا جهدهم البعد عن واقعية القرن التاسع عشر التي تغرق في الوصف المفصل للمواقع الخارجى وتقدمه بصورته التي هو عليها ، وتمثلوا منها تعبيرا يقدمون به الانعكاسات الشعورية والانفعالية التي تثيرها الأشياء في نفس الكاتب . وقد تأثر أفراد هذه الجماعة بعدد من أدباء ومفكرى أوروبا أبرزهم « أبسن » و « شوبنهاور » و « نيتشة » و « بسكال » و « كيركجارد » والروائيون الروس .

نشأ لوركا في ظل هذه الحركة الأدبية والفكرية ، وتأثر بها في صباه تأثرا بالغيا ، ذلك أنه ما أن شب عن الطوق ، حتى كان نتاج إقطاب الحركة يصبغ الفكر والثقافة في اسبانيا ويسيطر على أذهان المثقفين .

وقد ولد شاعرنا كما قلنا في نفس عام النكبة الاسبانية ، وكان أكبر أبناء أحد ملاك الأراضي في مقاطعة الأندلس الجنوبية ، فوالده دون « فديريكو غرسيه رودريجز » ، كان مزارعا ناجحا له عدة ضياع في غرناطة . وكان الوالد عريض الملامح ، خلعت الشمس على وجهه المستدير ويديه سمرة عربية صادقة . وكانت شخصيته مثالا للمواطن الريفى القح ، ذى الدخل المريح والسمعة الطيبة والمهارة في فلاحه الأرض وإدارة المزارع والضياع ولم يكن يعنيه الشعر فى قليل أو كثير . أما أم الشاعر فكانت ذات طبع مختلف ، فقد كانت دونيا « فيسنتا لوركا روميرو » هادئة متزنة ، صغيرة الحجم رقيقة الملامح ذات صوت طفولى ناعم وكانت تعمل قبل

زواجها مدرسة ومعلمة للموسيقى ، وقد تزوجها دون فديريكو بعد وفاة زوجته الأولى التي لم تنجب أطفالا . وقد قال لوركا عن والديه بعد ذلك فى مقابلة صحفية : « لقد ورثت حدة العاطفة عن والدى ، والذكاء عن والدتى » . وقد تشكل اسم لوركا حسب التقليد الاسباني العريق - من اسمه الأول الذى يماثل الاسم الأول لأبيه : فديريكو ، متبوعا بلقب عائلة الأب : غرسيه ، ثم لقب عائلة الأم : لوركا . وقد أنجب الزوجان ولدين هما « فديريكو » و « فرانسيسكو » ، وبنتين هما « كونسيسيون » و « ايزابل » .

وكان مسقط رأس الشاعر فى قرية « فوينتى فاكيروس » أى « نبع رعاة البقر » ، ومن أعمال غرناطة ، فى بيت مكون من دورين للأسرة ، مقام وسط مدينة صغيرة مسورة يمكن للأطفال اللعب فيها بأمان . وكانت القرية التى يقع فيها المنزل صغيرة ، تتكون من بيوت واطئة بيضاء تلتصق فوقها أشعة الشمس . وكانت المشاهد فيها لا تعدو المزارعين يتجهون الى حقولهم فى الصباح الباكر ، أو يعودون الى بيوتهم مع مغرب الشمس ، وعربات تجرها الثيران أو الخيول ، وقطعان ماشية أو أغنام تسير مهتزة وتثير من حولها سحب من غبار ، وعددا من الدراجات القديمة يعود بها أصحابها من مصنع السكر خارج القرية الى بيوتهم .

وقد حدث أن أصيب لوركا وهو وليد ذو شهرين من العمر بحمى غريبة مجهولة عرضت حياته للخطر . ولكنها انجابت عنه بخير ، ولم تخلف فيه الا مسحة من ضعف فى الساقين عند السير ، وجعلته يتأخر فى الكلام حتى سن الثالثة ، وفى السير حتى الرابعة .

وكانت طفولة لوركا سعيدة مريحة ، تزخر باللعب والانطلاق مع أقرانه من صبية القرية وسط الحقول والدروب . وقد قال هو نفسه عن طفولته فيما بعد : « طفولتى هى تعلمى الحروف الأولى والموسيقى على يد أمى ، والاحساس بنفسى كابن أحد أغنياء القرية . كل طفولتى هى القرية ، والرعاة ، والحقول ، والسماء ،

والوحدة ٠٠ » وتميز لوركا منذ طفولته بالشغف بالتأمل والملاحظة ٠٠ فحين كان يكف عن اللعب مع أترابه ، كان يمضى ساعات وساعات فى تأمل الفراشات والهوام والنباتات والزهور ، ويحادثها كأنما هى أصدقائه ٠ لقد شكل عالم الطبيعة له - بكل ما فيه من تنوع واختلاف - عالما مدهشا منذ البداية ، شيئا أشبه بفردوس عامر بمخلوقات تتطلب منه انتباها دائما وملاحظة مستمرة ٠

كذلك استبان للوركا فى طفولته عالم خيالى يزخر بالأحداث والقصص والشخصيات الخرافية ، نشأ من الحكايات والأساطير الشعبية التى كانت تقصها عليه مربيته وأقاربه وبعض صديقات الأسرة من العجائز ٠ وقد استمد من هذا العالم مادة غزيرة أنكب عليها عقله الصبباني يفحصها ويمحصها ، حتى تركت فى نفسه انطبعا لا يمضى ظهر بعد ذلك فى جميع انتاجه الفنى والأدبى ، إذ أن شاعرنا قد احتفظ بكل تفاصيل هذه القصص من حكايات واقعية إلى خرافات وأساطير ٠ لتظهر بعد ذلك فى ثنايا قصائده ومسرحياته، بل وأحيانا فى رسومه ٠ وكثيرا ماتبدو تلك الموضوعات على شكل صور تمثل نغمات غالبة تتردد فى كتاباته المختلفة ، إلى جوار الموضوعات التى تشبع بها كيانه منذ الطفولة ، مثل حياة الغجر ٠ ومسرح العرائس والأراجوز ، والحرس المدنى ، وحياة النساء فى الريف ، فضلا عن المشاهد الطبيعية الريفية ، وما يزخر به عالم الطبيعة من عوالم متنوعة من أزهار ونباتات وهوام وطيور وحيوانات وجداول وينايع وأنهار وبحار ، وما إلى ذلك ٠

كان من بين ما استمتع اليه الطفل ما قصسه عليه عمه يوما ما عن لصين من قطاع الطرق لجأ إلى منزل عائلة العم فى إحدى الليالى يطلبان ملاذا وطعاما ٠ وعطفت العائلة عليهما فأوتيهما فى ركن من مخزن الغلال بعد أن زودتهما بالطعام والشراب ٠ وفى منتصف الليل ، استيقظ الجميع على دقات متتالية على الأبواب ، معلنة وصول قوات الحرس المدنى ، أى رجال الدرك والشرطة الاسبان ٠ وظهر الحراس بقبعاتهم المثثة الشهيرة ، وقبضوا على

لص من اللصين ، بعد أن تبين أن الثانى قد مات فى نومه من الجراح
التي أصيب بها • وقال الحراس للعم : « وأنت أغلق فمك ولا تقل
كلمة عما رأيت ! » •

وتساءل الصبى فى زعر : وماذا حدث للرجل ؟

— لم نسمع سوى طلقة رصاص ، وصرخة فى الليل البهيم ،
ثم طلقة رصاص أخرى ، ولا شئ بعد ذلك •

— لقد قتلوه إذن ، لقد قتلوه !

وقال الصبى هذه العبارة ، فاغر الفم وعيناه تلمعان من فرط
الانفعال •

وقد أبدع الشاعر بعد ذلك فى تصوير جو الحرس المدنى
الاسبانى فى عدة قصائد مشهورة ، معظمها فى ديوانه « حكايا
الفجر ، ومنها قصيدة بعنوان حكاية الحرس المدنى يقول فيها :

الجياد سوداء

وسود حدودها

وعلى العباءات

تلمع بقع من حبر وشمع

جماجمهم من رصاص

لهذا لا يكون

ويخبون فى طريقهم

بارواحهم الجلدية البراقة •

محتبوا الظهور ، مقسترون بالليل

وحيثما يحلون

يفرضون صمت المطاط الأسود

وخوف الرمال الناعمة يمرون حينما يبعثون المرون ويخفون فى رعوسهم فلما غامضا من مسدسات لا هوية لها

ان ما فعله لوركا مرارا وتكرارا فى أعماله الفنية هو انه تناول القصص والنوادر التى قصها عليه معارفه فى طفولته ليصنع منها بعد ذلك حبات مسرحة ، كما عمد أحيانا الى ادخال اللغة البديعية التى اعتاد سماعها فى القرى التى عاش فيها ، بين ثدايا لغته الشعرية .

وقد قال ذات مرة عن طفولته : « لقد عشت طفولتى فى جو كامل من الطبيعة . وككل الأطفال ، كونت رأى بشأن شخصية كل شىء ، كل موضوع ، كل قطعة أثاث ، كل شجرة ، كل حجر . وكنت ابادل هذه الأشياء الحديث وأبادلها الحب . كانت تنمو فى صحن دارنا أشجار الحور السوداء . وفى أصيل أحد الأيام ، خطر لى أن أشجار الحور تشدو بالغناء . ذلك أن الرياح وهى تمر بين أغصانها كانت تصدر مجموعات من الألحان بدت لى كالموسيقى . وقضيت ساعات أصاحب بصوتى أغنية الأشجار . ويوما آخر ، دهشت اذ سمعت شجرة حور سوداء عتيقة تهمس بأسمى : ف ٠٠ دير ٠٠ يكو!

وفى حديث آخر مع أحد الصحفيين ، قال لوركا : « كان لذكرايتى الأولى عبير الأرض . لقد فعل الريف بحياتى فعل السحر ان للأرض وللهموم وللحيوانات وللأفكار لا تصل الى الجميع أننى أسيطر عليها الآن بنفس الروح التى كذت أسيطر عليها بها فى طفولتى . لقد كنت طفلا محبا للاستطلاع ، وكنت أتابع آنذاك عملية حرث أرض والدى فى أعماق الريف . ولقد أحببت مشاهدة النصال الحديدية الهائلة تفتح جسرا فى الأرض ، جراحا تنبجس منها الجنود بدلا من الدماء . ومرة اصطدم نصل المحراث بشىء أعاق

مسيره ، ثم اقتلع كسرة من قطعة خزف ورمانية عتيقة • وكان عليها
سطور لا أذكرها وان بقى منها اسما الراعيين « دافنيس » و « كلو »
فى ذهنى • وكان للاسمين أيضا نكهة الأرض التى أعشقها » •

وقد عاش لوركا حتى الحادية عشرة من عمره تقريبا فى قلب
الريف ، اذ أن أسرته انتقلت بعد مقام فى « فوينتى فاكيروس » الى
قرية أخرى تدعى أسكيروسا - التى كان العرب يسمونها
الشكروجة ، والتى تدعى الآن بلدى الربى Valde Rubio
وهى فى نفس اقليم غرناطة أيضا حيث كان الأب يملك بعض الأرض
• • وهكذا انطبعت حياة الريف فى كيان الشاعر ، وانطبعت فى قواده
عساحات الخضرة التى تحيط به من كل مكان • وجاءت القصيدة
الخضراء ، حكاية السارية فى نومها ، جميعا لكل هذه العوامل
التي تأثر بها لوركا فى طفولته وصباه ، فهى مزيج من الصور
الفنية المستمدة من الريف وأساطيره ، وحكايات اللصوص والمهربين ،
فى خلق شعري غنائى جميل :

أخضر ، أخضر ،

كم أحبك يا أخضر •

رياح خضر ، وأفنان خضراء •

السفينة فى البحر ،

والجواد فى الجبال ،

وهى تحلم فى شرفتها

والظلال تتراقص على خاصرتها

خضراء الجسد ، خضراء الشعر

وعيناها من فضة باردة

أخضر ، أخضر ،

كم أحبك يا أخضر •

على تور قمر العُجُر
كل شيء يراها
وهي لا ترى شيئاً •



أخضر ، أخضر ،
• كم أحبك يا أخضر •
انجم هائلة
من الصقيع الأبيض
تأتي مع أسماك الظلام
• لتشق طريقا للفجر •
وشجرة التين
• تدلك هواءها برمال فروعها •
والجبل ،
كالقطة السارقة
ينصب صباراته الحارقة
ولكن ، من ذا القادم ؟
والى أين يقصد ؟
وتتمهل الفتاة في شرفتها
خضراء الجسد ، خضراء الشعر
تحلم بالبحار المريرة



- « أى رفيقى ،

الك أن تقايض جوادى بمنزلك ؟

الك أن تبادل مسرجى بمرآتك ؟

الك أن تبادل خنجري ببساطك ؟

أى رفيقى ،

لقد أتيت متخنا بالجراح

من عند بوابات « قبره » (*)

- « لو أمكننى أيها الشاب

لأتممت هذه الصفقة بيننا

ولكنى لم أعد أنا

كما لم يعد منزلى بعد منزلى »

- « أى رفيقى ،

أريد أن أموت بسلام فى فراشى

على سرير حديدى أن أمكن ذلك

وملاءات من الحرير الهولندى •

ألا ترى جراحى

تمتد من صدرى الى عنقى ؟ »

- « ثلاثمائة زهرة داكنة

يحملها صدر قميصك

دماؤك حارة

(★) بلدة من أعمال مدينة قرطبة بالأندلس .

تصطخب من حول ضماداتك
ولكنى لم اعد انا
كما لم يعد منزلى بعد منزلى ،
- « دعنى على الأقل
أصعد الى الشرفات العليا
دعنى أصعد ! دعنى !
الى الشرفات الخضراء
شرفات القمر
حيث تنهل المياه »



ويصعد الرفيقان الى الشرفات العليا
ووراءهما خيط من الدماء
وراءهما خيط من الدموع ،
ومصاييح صفيحية صغيرة
ترجف على الاسطح
وآلاف من المزامير
تثخن الفجر بالجراح ،



أخضر ، أخضر ،
كم أحبك يا أخضر ،
رياح خضر ، واقنان خضراء

ويصعد الرفيقان ٠٠٠
والرياح المتطاوله ،
تترك مذاقا غريبا في الشفاه ،
مذاق مر ونعناع وريحان •
- « اى رفيقى ، أين هى ؟
أين تلك الفتاة المريوة ؟ ،
- « آه ٠٠٠ كم مرات انتظرتك !
وكم ستنتظر مرات ومرات !
فى تلك الشرفة الخضراء
مشوقة الوجه ،
مسوداء الشعر »



وتراقصت الفتاة الغجرية
على سطح خزان المياه
خضراء الجسد ، خضراء الشعر
وعيناها من فضة باردة
وثؤلؤل من القمر
يحملها على صفحة المياه
وانسدل الليل اليفى
كالساحة الصغيرة
ورجال الدرك سكارى

يدققون على الأبواب ٠٠٠
 أخضر ، أخضر ،
 كم أحبك يا أخضر ٠
 رياح خضر ، وأفنان خضراء ٠
 السفينة فى البحر
 والجواء فى الجبال ٠

والى جانب هذا التعليم الفطرى الذى ناله الشاعر من الطبيعة حوله ومن حياة الحقول ونسيج الأساطير والحكايات الشعبية ، بدأ حصيلته فى فترة مبكرة ٠ فقد اهتمت والدته - وهى المدرسة أصلا - بتلذذيه مبادئ اللغة والعلوم بنفسها ، وأشهرته حب الموسيقى ومبادئها منذ نعومة أظفاره ٠ ثم انتظم فى مدرسة القرية - التى كان يشرف عليها ويدرس فيها الأستاذ « أنطونيو اسبينوزا » ، وهو صديق حميم لأسرة لوركا ، الذى سرعان ما فطن الى المواهب الباكرة التى يتمتع بها ذلك الصبى ، فتوفر على تطوير النزعات الفنية فيه ٠ وقد بادله الصبى ودا بود ، وصل الى أنه حين نقل الأستاذ عام ١٩٠٨ الى مدينة « المرية » الساحلية ، قررت الأسرة أن ترسل ابنها بصحبته ، تلميذا فى مدرسته ومقيما فى منزله ، حتى يستمر فى تلقى التعليم الذى بدأه على يديه ٠

ولكن اقامة لوركا فى « المرية » لم تكن موفقة ، إذ سرعان ما غلبه الحنين الى أسرته وبلدته ، واقتقد الجو الحانى الذى كان يحيطه به أبواه ، وأخيرا سقط فريسة المرض ، وتورم وجهه من جراء الميكروب الفامض الذى هاجمه ، حتى اضطر الأب الى أن يعيده الى البيت ولم يرسل به بعيدا عن الأسرة بعد ذلك ٠ وكانت حصيلة هذه التجربة المريرة ، أولى محاولات لوركا الأدبية ، إذ أنه كتب خلال فترة مرضه قصيدة هزلية قصيرة ، شبه نفسه فيها بوجهه المنتفخ بسلطان مراکش آنذاك ، وهى تمثل جانبا آخر من جوانب خياله الممتلىء بالصور العربية ٠

وقد بدأ فى تلك الفترة - عام ١٩٠٨ وما بعده - شغف لوركا بالقراءة والمطالعة . وكان من بين ما تأثر به كتاب « دون كيخوته » درة الأدب الاسبانى ، وبعض مترجمات من أعمال « فكتور هيجو » كانت فى مكتبة جده لأبيه . وتجمعت مادة قراءاته هذه مع مادة الشعر الشفوى والرومانسيات والأغاني الشعبية التى كان يسمعا من أقواه الفلاحين أو فى السهرات العائلية ، حتى أنه صار وهو فى العاشرة من عمره طفلا ذا خيال ثرى ، تضطرم فيه الصور والأساطير والروايات ، ويبين اضطرابها عينيه الداكنتين فتنبئان عن روح وثابة تواقة للتعبير عن نفسها فى أشكال مختلفة من الفن والحياة .

وفى المنزل ، كان لوركا ينفث عاطفته الفنية المبكرة على شكل أعمال تمثيلية يعرضها أمام جمهوره الأول ، وهو يتكون من أخيه وأخته ووالدته ، ومن يعمل فى المنزل من خدم . وقد تأثر تأثرا عظيما بعروض مسرح العرائس الريفى المتنقل الذى كان يمر بـ آونة وأخرى بقريته . وكان يحاول أحيانا تقليد عرض التمثيلية التى يشاهدها فيه وينقلها عبر خياله الى نظارته . وقد ظهر هذا الميل فيما بعد فى عدد من عروض مسرح العرائس توفر الشاعر على كتابتها وإخراجها ، منها « عرائس كاتشى بورا » ومسرحية عرائس « دون كريستوبال » وغيرهما ، مما يمثل من حصيلة أعماله ذلك الجانب الطفولى من شخصيته الذى امتزج بموهبة الفنان فأننت أعمالا خلقة فى ذلك الميدان .

حياة المدينة

بعد أن فشلت تجربة إرسال لوركا الى « القرية » لاستكمال دراسته مع أستاذه ومعلمه الأثير ، كان على الأسرة أن تتخذ قرارا بالانتقال الى عاصمة الإقليم - مدينة غرناطة - وذلك حتى يتوفر للصبي ولأخيه واختيه التعليم المناسب فى المدارس المناسبة . وقد انطوى ذلك الانتقال على تغييرات عديدة فى نمط حياة الأسرة وطريقة حياة أفرادها . وكانت الرحلة مثيرة للوركا الصبى ، ولكنه سرعان ما بدأ يفقد مسارح طفولته وأصدقائه وأماكن تجواله ولهوه فى القرية . ووجد لوركا المدينة جد مختلفة عن القرى التى شهدت طفولته ، فالأفق لم يعد منبسطا أمام ناظره ، وأفتقد هدوء الريف وتوهج الشمس فيه . ولم يعد المنزل الذى يقيم فيه يتسم بالرحابة والألفة التى كان الصبى يجدهما فى الكرمة التى كانا يقيمون فيها بالقرى ، حيث صحن الدار بناقورته التقليدية ، والبستان الذى يحيط بالدار ويمتلئ بالزهور من ورود وياسمين ورياحين ، وينثر بالفراشات والجداجد والهوام والقواقع ، وهى المادة التى نثرت بعد ذلك فى معظم قصائد لوركا وتمثلياته .

واصطبغ شعوره فى المدينة بحنينه الى طفولته القروية ، فأنشأ مثل هذه القصيدة التى كانت من أوائل ما كتب من شعر :

يخرج الأطفال قرحين

من المدرسة

مرسلين فى هواء أبريل الدافئ

أغاني حنونة .

أى بهجة
يخلعها الصمت العميق
على الرقاق الصغير !
صمت يتحطم شظايا
بضحكات الفضة الجديدة •



ها أنا أمضى فى درب الأصيل
وسط زهور البستان
تاركاً ورائى
مياه أحزائى
وفى التل المنعزل
ترقد مقبرة الضيعة
كأنها حقل تغرسه الجماجم
بينما أزهرت أشجار السرو
كأنها رؤوس ضخام
تأمل الأفق
بمحاجر فارغة
وشعور مخضوضرة
يكللوا الفكر والحزن



أه يا ابريل الالهى
يامن تاتى حاملاً الشمس والشذى
فتملاً الجماجم المزهرة
بأعشاش ذهبية !

وكان مما خفف على الأسرة هذا الحنين الجارف الى الريف ، أن الأب قد احتفظ بضياعه القروية ، حيث كانت الأسرة تذهب لتمضية العطلات • كذلك ابتاع الأب بعد ذلك كرمة فخمة فى ضواحي غرناطة سميث « بستان سان فسنت » حيث كانوا يمضون الصيف دائماً ، وكان لوركا يحرص على اللحاق بأسرته هناك لزيارتهم وتمضية بعض الوقت معهم وقد ارتبطت تلك الكرمة بآخر أيام الشاعر حين ذهب فى زيارة الأسرة هناك حين وقع الانقلاب العسكرى فى صيف عام ١٩٣٦ وأدى فى النهاية الى مصرعه •

وفى غرناطة ، ألحق لوركا بمدرسة اعدادية اسمها « القلب المقدس » ، كيما تعده للحصول على الشهادة الحيوية بالنسبة لكل "اب - وهى الثانوية العامة التى تسمى بالاسبانية «الباتشيريأتو» - بتى تؤهله للالتحاق بالجامعة • وكان جو الدراسة فى هذه المدرسة - رغم أنها لم تكن مدرسة دينية بالمعنى المفهوم - جوا خانقاً • وكان المدرسون من النوع المتزمت العتيق • وقد خلد لوركا أحد مدرسيه فى تلك المدرسة ، فى مسرحيته « الآنسة روزيتا العانس » ، حيث نرى الأستاذ « مارتين » يبتشجونه عن حياته كمدرس والصعوبات اليومية التى يلاقيها من تلاميذه فيقول :

« لقد عدت توا من القاء درس عن المنظور • لقد كان جهنما حقيقية • لقد كان درساً عظيماً : « مفهوم وتعريف الاتساق » • ولكن لم يكن يهم الأولاد فى شىء • • ويألمهم من أولاد ! انهم يحترموننى شيئاً ما لأنهم يرون أنه لا نفع فى ، فمرة أجد دبوساً على المقعد ، أو عروساً صغيرة على ظهري • ولكنهم يقتربون أشياء أقطع مع رفقاءى المدرسين • أنهم أبناء الأثرياء ، ولا يمكن عقابهم لأنهم يدفعون • وهذا مايقوله لنا المدير دائماً • وأمس زعموا أن الأستاذ «كانيتو» المسكين، وهو معلم الجغرافيا الجديد، يرتدى مشداً للخصر ، ذلك لأن جسده منحن قليلاً • وحين كان يقف وحده فى الفناء تمالاً عليه الكبار وتلاميذ الداخلية ونزعوا الثياب عن وسطه

الأعلى ، وربطوه فى أحد أعمدة البهو والقوا عليه دلوًا من الماء
من الشرفه ٠٠

٠٠ اننى ادخل المدرسة كل يوم وانا ارتجف منتظرا ما سوف
يفعلونه معى رغم أنهم يحترمون بعض الشئ ما أنا فيه من البلاء ٠٠
أن الآباء يضحكون بعد ذلك من الفظائع التى يقتربها أولادهم لأننا
من المدرسين غير المثبتين ولا نقوم بامتحان أولادهم ٠ انهم يعتبروننا
رجالا خالين من العواطف ، كأننا أشخاص نقف فى آخر درجة من
السلم ولا نزال نرتدى ربطة العنق والياقة المشواه (١) ٠

وبعد مدرسة « القلب المقدس » ، يلتحق شاعرنا بمعهد الدراسة
الثانوية فى غرناطة ، ويمضى فيه فترة دراسته الثانوية حتى يتخرج
منه بصعوبة حاصلا على الثانوية العامة فى ٢٠ من مايو ١٩١٥ ٠
ونقول أنه حصل عليها بصعوبة لأن الدراسة لم تكن تستهويه قدر
ما يستهويه تكريس حياته للفن والموسيقى والأدب ومعايشة أهلها ،
وهى السمة التى ستظل لاصقة به أيضا خلال تعليمه الجامعى ٠

ونعود الى تلك الحقبة من حياته أولى اهتماماته الفنية فى
حقل الشعر والموسيقى ، إذ يرجع إليها وضعه لأولى قصائده ،
وعنوانها « فجر » ، التى نشرها بعد ذلك فى أول دواوينه الشعرية :

فؤادى المذلحون

يشعر عند اطلالة الفجر

بأحزان حيه

وأحلام الأرض القصية ٠

ونور الفجر

(١) « الأنسة روزيتا العانس » - العدد ١٦٥ من سلسلة من المرح

العالمى ، وزارة الاعلام بالكويت ، يونيو ١٩٨٣ ٠

يحمل مئات الحنين
والحزن الأعمى
للباب الروح
ويرفع قبر الليل العريض
تقايه الأسود
ليخفى بالنهار
الذرى الشساسة
المرصعة بالنجوم



ماذا سأفعل أنا فى هذه الحقول ؟
التقط الأعشاش والأعصان
ملتحفا بالفجر
بينما يملأ الليل روحى ؟
ماذا سأفعل أنا ؟
وعيناك قد صرعتهما الأنوار الباهرة
وبدنى يجب ألا يشعر
بحرارة نظراتك •



لماذا فقدتك والى الأبد
فى ذلك الأصيل الصافى ؟
فاللوم قد جف صدرى
كانما هو نجمة متطفئة •

كما يبدؤ لوركا أيضا فى هذه الفترة دراسة الموسيقى دراسة منهجية على يد أستاذ عظيم ترك فيه أكبر تأثير ، وهو الموسيقار « أنطونيو سيجورا » ، أحد تلاميذ الآيتالى العظيم « فردى » • وقد وصل شغفه بالموسيقى وحبه لدراستها الى حد أنه قد خطط جديا — بعد وفاة أستاذه ذلك — للسفر الى باريس لاستكمال دراسته للموسيقى هناك ، ولم يثنه عن ذلك الا اصرار والده على أن يكمل دراسته فى الحقوق أولا •

وبعد حصول الشاعر على الثانوية العامة ، التحق بكلية الحقوق جامعة غرناطة • وقد جاء اختيار تلك الكلية بعد طول نقاش بين لوركا ووالده ، تحول بعد ذلك الى مشكلة عويصة ، فقد كان الابن راغبا فى دراسة الأدب ، بينما الأب يتطلع الى رؤية ابنه يشغل وظيفة محترمة تكفل له وضعاً مريحاً فى المجتمع ، كوظائف المحامين والقضاة • ووجد لوركا الحل السعيد لتلك القضية ، فقد أذعن لرغبة والده فى دراسة الحقوق ، الا انه عند الى ارضاء نزعاته الأدبية ، فالتحق أيضا وفى نفس الوقت بكلية الآداب فى نفس الجامعة !

ولكن هيهات لتلك الروح الثائرة الوثابة أن ترضى بالقوالب الجامدة التى تفرضها الدراسة النظامية — سواء كانت لحقوق أو للآداب ، ذلك أن ميوله الفطرية كانت فى جانب ، والدراسات المنهجية فى الجانب الآخر • لذلك نراه لا يلقى بالا لمتابعة المحاضرات ولا للاستعداد للامتحانات ، بل هو موجود دائما حيث يوجد الفن والأدب ، مشاركا فى الجماعات الأدبية ، وحاضرا فى نوادى الفن والثقافة ، حيث يطلق العنان لروحه لتتلاقى مع أرواح رفاقه من الفنانين والأدباء ، وتسمعهم خطراتها على شكل أغاني شعبية ومعزوفات موسيقية خلقة • وجدير بالذكر أنه لم يتخرج ، فى نهاية الأمر ، الا فى كلية الحقوق فى عام ١٩٢٣ ، معضدا بوساطات أصدقائه وزملائه لدى الأساتذة للتغاضى عن نسبة الحضور اللازمة لدخول الامتحانات • أما كلية الآداب ، فإن مترجمى حياته — وعلى

رأسهم صديقه الحميم « خوسيه لويس كانو » - يؤكدون أنه لم يتخرج فيها أبدا . وغنى عن القول أيضا انه لم يعمل بليسانس الحقوق الذى حصل عليه فى أى وقت من أوقات حياته .

ترك لوركا اذن محاضراته ، وانطلق يهيم فى عالم الفن والأدب على حريته . وكانت الأماكن التى تستأثر بوقته عديدة : « الساكرامنتو » حى الغجر فى غرناطة ، حيث كان يحب أن يندمج مع هذه الفئة التى تعيش حياتها على طبيعتها ، يسمع منهم كما اعتاد أن يسمع من قبل فى الريف - غناءهم وحكاياتهم وقصصهم . وكان بعضهم يسكن أيضا فى حى الفقراء ، من العمال والفلاحين ، وهو حى « البيازين » الذى احتفظ بنفس اسمه العربى منذ أيام بنى الأحمر ، والذى لايزال الزائر الى اليوم يجد لافتات صغيرة بالعربية تقول : « الحى العربى يرحب بكم » .

وكان الشاعر يتردد كثيرا على مركزين رئيسيين من مراكز الفن والثقافة فى غرناطة ، أحدهما رسمى تقليدى ، والآخر تجديدى طليعى . فأما المركز الرسمى فهو « المركز الفنى Centro Artistico » وكان لوركا يجد فيه الكتب التى يريد الاطلاع عليها - خارج المناهج الدراسية الجامعية - ويسمع فيه المحاضرات ويحضر الحفلات الموسيقية . وفى هذا المركز ، أعطى لوركا أول عروضه الموسيقية ، حيث عزف مقطوعات كلاسيكية نالت استحسان الحاضرين . ولكنه كان ينطلق على سجيته مع المجددين الطليعيين ، الذين تركزوا فى ندوة فنية كانوا يجتمعون فيها فى ركن من أركان مقهى شهير يدعى « الأמידا » ، وتسمت الندوة من جراء ذلك باسم « الركن الصغير » « Rinconcillo » وفى هذه الندوة - التى تمثل النزعة الثائرة على التقليد فى الفن - كان يلتقى صفوة من جادت به غرناطة من شباب الشعراء والقصاصين والرسامين والموسيقيين . وكان أفراد الندوة يتناقشون فى كل وجه من أوجه الثقافة والفن ، من المسرح الاسباني فى عصره الذهبى ، الى موسيقى « ديبوسى » « ورافيل » الفرنسيين . وكانوا يستمعون الى انتاج بعضهم البعض ويتناولونه بالنقد والتحليل . وكان لوركا يلقي على أفراد الندوة حكاياته ونوادره

وشعره ، ويعزف لهم المقطوعات الشعبية ويغنى الأغاني الفولكلورية
 • وفى هذه الندوة ألقى لوركا أوائل قصائده التى بدأ فى تدبيجها
 عام ١٩١٨ وما بعده ، وقوبلت بحماسة شديدة من أفرادها ، مما
 جعل « مورا جارنيديو » أحد أعضاء الندوة - يؤكد بعد ذلك بأن
 تلك الحماسة هى التى أغرت لوركا بالتركيز على كتابة الشعر منذ
 تلك الفترة •

وكان كبار الأدباء والفنانين - الاسبان والأجانب - يزورون
 تلك الندوة الثقافية فى ركنها الصغير للمشاركة والتعرف وإبداء
 الرأى ، أو لحضور مناقشاتها بوصفها واحة من المعالم الثقافية
 لمدينة غرناطة • وهكذا زار الندوة الكاتبان البريطانيان الشهيران
 هـ • ج • ويلزو « رديارد كبلنج » عند مرورهما بغرناطة فى رحلتها
 الاسبانية • كذلك كان الموسيقار الاسبانى المعروف مانويل دى فاي
 - الذى يعرب البعض لقبه الى « ضيف الله » - يحضر جلسات
 الندوة فى كثير من الأحيان بعد انتقاله الى غرناطة واتخاذة كرمه
 له هناك بالقرب من قصر الحمراء • وقد تعارف الى لوركا ونشأت
 بين الفنانين الأندلسيين صداقة وثيقة العرى سنعود الى الحديث
 عنها بين حين وآخر فى هذا الكتاب •

وتركزت قراءات لوركا فى تلك الفترة - بعامل تأثير أصدقائه
 أعضاء الندوة وزملائه فى جامعة غرناطة - فى عيون الأدب الاسبانى
 • • وهكذا التهم أعمال « لوى دى فيجا » و « كالدرون دى لا باركا »
 و « جونجرا » و « خوان ثوريلا » فضلا عن دواوين « روبين داريو »
 شاعر نيكارا جوا الذى رفع راية الحداثة فى الشعر الاسبانى • وقرا
 كذلك أعمال الرومانسيين ، خاصة « جوستافو أدلفو بيكر » شاعر
 اشبيلية ، وتعرف على حركتى الرمزيين والبرناسيين اللتين كانتا
 فى عنفوانها آنذاك فى فرنسا • وكم كان للوركا من تجوالات طوال
 فى دروب غرناطة التى عشقها وعلى مشارف قصر الحمراء ورياض
 جنة العريف ، وحده أو مع زملاء له ، يقرأون كتب الشعر والأدب
 هذه ويعلقون عليها بأرائهم ونقدهم •

وتعرف لوركا ابان الطلاب الجامعى فى غرناطة على استاذين لعبا دورا هاما فى تكوينه الثقافى والعملى ، اولهما وأبعدهما تأثيرا هو « قرناندو دى لوس ريوس » استاذ القانون السياسى بكلية الحقوق - الذى تبناه فكريا وتابع مد يد العون له فى جميع مراحل حياته ، خاصة عندما عين الأستاذ بعد إعلان الجمهورية فى اسبانيا عام ١١٣١ وزيرا للتعليم . والأستاذ الثانى هو « مارتين برويتا » الذى كان له الأثر المباشر فى وضع لوركا لأول كتبه المنشورة . وكان الأستاذ « برويتا » يعمل استاذا لنظرية الأدب بكلية الآداب ، وعمل بدروسه ومحاضراته على إثارة القلق الفنى والأدبى فى صدور تلاميذه ومنهم لوركا ، ذلك القلق اللازم للإبداع الفنى . وقد نظم الأستاذ « برويتا » رحلات هامة لطلبة لزيارة المعالم الفنية والأثرية والتاريخية فى أسبانيا ، اشترك لوركا فى رحلتين منها كانت نتيجتها أول كتبه . كانت الرحلة الأولى فى يونيو ١٩١٦ لزيارة إقليم الأندلس كله بمدنه العظيمة . والتقى لوركا اثناء مرورهم ببلدة « بياسة » Baeza بالشاعر العظيم « انطونيو متشادو » أحد عمد جيل ٩٨ التى سبق ذكرها ، وكان يعمل أيامها بالتدريس هناك . والرحلة الثانية كانت فى أكتوبر من نفس العام ، وزار فيها مقاطعة قشتالة وشمال شرق اسبانيا ، وكان من بين من قابله لوركا اباؤها فيلسوف اسبانيا المشهور « أونامونو » وهو أيضا علم من أعلام جيل ٩٨ .

وقد عمد لوركا فى اثناء الرحلتين الى تدوين خواطره وتأملاته عن الأماكن التى يزورها . وعاد الى تلك الأوراق بعد ذلك يعمل فيها تنقيحا وترتيباً وإضافة ، حتى تجمع له فى النهاية عدة مقالات وصفية . وقد خطر له خاطر الح عليه حتى أصبح احتمالا محققا ، وذلك هو نشر هذه المقالات فى كتاب يحمل اسمه . ولم يكن أمامه - وهو غير المعروف بعد فى عالم الكتابة - الا أن ينشر الكتاب على نفقته . وحسين فاتح والده فى ذلك ، تردد الأب ، ثم بحث الموضوع مع الثقافة من معارفه من اساتذة الجامعة والصحفيين ، فأجمعوا كلهم على أن الكتاب يستحق النشر . وهكذا دفع « دون

رودريجت « ثلاث آلاف بيزيته تكاليف الطبع ، وقال فى هذه المناسبة :
« ان ذلك أفضل مما لو كان قد طلب منى سيارة ! »

وصدر كتاب لوركا تحت عنوان « انطباعات وصور »
«Impresiones y Paisajes» ، فأحدث ضجة لا لدى الجمهور ،
ولكن لدى أعضاء ندوة « الركن الصغير » الذين رأوا فى كتاب
يصدره أحد زملائهم مدعاة فخر للجماعة كلها . وقد أهدى المؤلف
كتابه لأستاذه الموسيقى الراحل « أنطونيو سيجورا » ، فكان رمزا
مزدوجا يعبر عن إخلاصه وحبه لأستاذه ، وكذلك حبه وشغفه
بالموسيقى .

ومقالات الكتاب كتبت بروح بلاغية رومانسية ، يبدو فيها
واضحا تأثير امام الرومانسيين الاسبان « بيكر » فى قطعه النثرية ،
وقد سطرت بروح شاعرية وحس غنائى دفاق يعبر عن حب الشاعر
لمواطن الجمال فى وطنه . ولكن الكتاب لم يلقى راجا ، الا أنه كان
دافعا مشجعا للشاعر المبتدىء أن يرى انتاجه الأول مطبوعا
ومنشورا . ورغم أن لوركا كان يشير اليه بعد ذلك فى رنة اعتذار
عن روح البلاغة الطلابية التى تشيع فيه ، الا أن أجزاء منه كانت
تزد دائما فى طبعة الأعمال الكاملة للشاعر .

وبعد فترة وجيزة من صدور هذا الكتاب ، ثبتت أقدام الشاعر
فى عالم النشر . ذلك أن مجلة « الرواية القصيرة » التى تصدر فى
مدريد ، أخرجت عددا خاصا عن الشعر الاسبانى الحديث ، كان من
بينها قصيدة للوركا بعنوان « موال الساحة الصغيرة » . ورغم أنها
لم تكن أول قصيدة يكتبها لوركا ، فهى أول قصيدة تنشر له ، وكان
نشرها بعد نشر كتابه الأول ، عاملا هاما أقنعه بأن حياته ليس لها
الا طريق واحد ، طريق الفن والأدب . وتندرج تلك القصيدة المبكرة
فى فئة حنينه الى مسارح طفولته وذكريات حياته فى الريف :

الأطفال يشنون
فى الليل الهادىء
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
الأطفال

لماذا يخبىء فؤادك الالهى البهيج ؟
انا

دقات اجراس
تائهة بين طيات الضباب
الأطفال

ها أنت تدعا نغنى فى الساحة الصغيرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
ماذا تمسك فى يديك الربيعيتين ؟
انا

زهرة بلون الدماء
وسسوسة

الأطفال

اغمرهما فى مياه الأغنية العطرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
ماذا يخبىء فمك من مشاعر
حمرء عطشا ؟

انا

مذاق عظام راسى الكبير

الأطفال

فلننهل من الماء الهادىء للأغنية العطرة

ياللغدير الصافي

والنبع الرقراق

لماذا تذهب هكذا ؟

بعيدا عن الساحة الصغيرة ؟

انا

اتى ذاهب بحثا عن السحرة

وعن الأميرات

الأطفال

ومن ذلك على درب الشعراء ؟

انا

تبع الأغنية العطرة

وغديرها الرقراق

الأطفال

اذا هب أنت بعيدا بعيدا

فيما وراء البحار والأرض ؟

انا

لقد امتلأ فؤادى الحيرى

بالاضواء ،

بالأجراس القاتئة ،

بالزنايق والنحلات
ولسوف أبغى بعيدا جدا
قيما وراء الهضاب والجبال
قيما وراء البحار والأنهار
بالقرب من النجوم
كيما أطلب من يسوع المسيح
أن يرد لى
روح طفولتى الأولى
وقد أنضجتها الأساطير
بما فيها قبعات الريش
والسيف الخشبي

الأطفال

ها أنت تدعنا نغنى فى الساحة الصغيرة
ياللغدير الصافى
والنبع الرقراق
وهاهى العيون اليواقظ
للأكمام الذابلات
تبكى أوراقها الميتة
وقد اثخننها الرياح بالجراح

الى العاصمة مدريد

ومع اقتحام شاعرنا لمجال النشر وبدأية ذيوع اسمه فى المحافل الأدبية والفنية ، بدأ يشعر بأن جو « غرناطة » يضيق عن آماله وطموحاته . انه الآن بحاجة الى أجواء جديدة وآفاق أوسع يمارس تحت ظلالها تحقيق أحلامه العريضة . ومن ناحية أخرى ، كان كثير من رفاقه فى مقهى « الاميدا » قد نزحوا الى مدريد للدراسة فى جامعاتها . وعندما وجد أنه لا مناص له من الانتقال بدوره الى العاصمة . وكان ممن رحب بفكرته تلك أستاذه « فرناندو دى لوس ريوس » الذى أشار على أسرة لوركا بضرورة إتاحة الفرصة أمامه لتنمية مواهبه فى بيئة أكثر اتساعا واستعدادا . واستطاع الأستاذ أن يحصل على موافقة الأبوين على تحويل لوركا للدراسة فى كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ، مع استمرار قيده فى كلية الحقوق بجامعة غرناطة . وكان الرحيل صعبا على الأبوين ، ولاسيما الأم التى تأملت أشد الألم من فراق ابنها الأكبر . وكان وعد من لوركا بحضوره دائما فى الأجازات وفى الصيف لقضاء أكبر وقت ممكن مع الأسرة .

وهكذا يشد الشاعر الرحال الى مدريد فى ربيع عام ١٩١٩ ، حاملا معه بطاقات مرور تعيينه على غزو تلك العاصمة التليدة : حفنة من الملابس الجديدة بما فيها بذلة سهرة سوداء ، وخطابات تقديم الى معارف الأسرة ، « وبلدياتها » الغرناطين فى العاصمة ، وفوق كل شئ : عدة نسخ من كتابه الأول انطباعات وصور .

وكان مما ضاعف من الفائدة التى استقأها بانتقاله الى العاصمة ، نزوله بالإقامة فى المدينة الجامعية فى مدريد .

Residencia de Estudiantes • ولم تكن هذه المدينة الطلابية تقتصر على كونها نزلا لسكنى الطلبة الجامعيين فحسب ، بل أنها كانت تمثل مركزا من مراكز الحركة الفنية الطبيعية فى اسبانيا ، ونقطة وصل بين حركات الحداثة الفنية فى أوروبا وبينها فى أسبانيا ، بما كانت تضمه أيامها من نخبة الشباب الجامعى المفكر المستنير • وكثيرا ماكان يطلق عليها اسم أكسفورد الاسبانية • وكانت المدينة تقع فى أعالي مدريد بالقرب من متحف العلوم الطبيعية ، وكان الشاعر « خيمينيث » يسميها « رابية أشجار الحور » • واستقبل مدير المدينة الجامعية لوركا بحفاوة وترحاب شديدين ، وسهل له جميع اجراءات الالتحاق ، لما كان قد سمعه عنه قبل مقدمه من رفاقه وزملائه الغرناطين الذين سبقوه فى الالتحاق بالمدينة • ومنح لوركا غرفة تقاسمها مع أول زميل له ويدعى « بيبين بلو » ، وهى غرفة تطل نوافذها على فناء يسمى « فناء أزهار الدفلى » كان قد خططه أيضا الشاعر « خيمينيث » •

وهكذا انضم شاعرنا الى تلك البوتقة التى انصهرت فيها الاتجاهات الحديثة فى كل أدب وفن • وكان من الطلاب المقيمين فى المدينة الجامعية كثيرون أصبحوا بعد ذلك أعلاما مشهورين : الرسام الشاعر « خوسيه مورنيو » ، السينمائى « لويس بونيوبل » الرسام إيسريالى « سلفادور دالى » ، الشاعر الأندلسى « رافيل البرتى » ، الشعاران « مانويل ألولاجيرى » و « أميليو براندوس » • كذلك كان يتردد على المدينة ومنتدياتها فنانون وأدباء خارجيون ليسوا من الطلبة ، منهم « بدور ساليناس » - « خورخيه جيين » - « أنطونيو متشاود » - « يوجين دورس » ، وعلماء فلاسفة كبار مثل « أونامونو » و « أورتيجا أى جاسيت » ، و « رامون منندث ببال » أحد المستشرقين الاسبان العظام • وكانت المدينة الجامعية محفلا ضروريا لأى أستاذ أجنبى يمر بمدريد ، وهكذا استمع لوركا فيها الى محاضرات من « ألبرت أينشتاين » و « هنرى برجسون » و « برتراند راسل » وآخرين •

وسرعان ما اندمج لوركا فى هذا الجو الفنى الفريد ، بما وهبه من طلاوة الحديث واجادة القاء الشعر وانشاد الاغاني الشعبية ،

وفوق كل شيء بمعزوفاته على بيانو المدينة الجامعية الذى كان لا يكاد يقوم عنه . وكانت أسعد لحظاته هى التى يجلس فيها الى ذلك البيانو العتيق ليعزف الألحان الكلاسيكية التى يطلبها منه الحاضرون ببراعة عظيمة ، ثم ينتقل منها الى عزف وغناء المقطوعات الشعبية التى تعلمها وحفظها منذ صباه فى القرى ووسط الحقول . وكان من بين من هام بهم من الكلاسيكيين : شوبان وموزار وبيتهوفن ورافيل وديبوسى ، والبنينز ودى فايا الاسبانيان .

وكانت مدريد كلها ميدانا رحيبا مفتوحا أمام الشاعر يجول فيه بحثا عن غذاء لروحه ومشاعره الفنية ، فكان كثير التردد على المتاحف التى تزخر بها العاصمة ، ولاسيما متحف « البرادو » - مثل متحف اللوفر الفرنسى وصدوه - حيث أغرم بلوحات «فلاسكين» و « جويا » و « الجريكو » . وقد حفزه إعجابه بلوحات ذلك الأخير الى زيارة متحفه وبيته فى مدينة طليطلة ، على مسيرة ساعة ونصف من مدريد .

ورغم أن لوركا كان نادرا ما يحضر درسا نظاميا فى الجامعة التى التحق بها ، إلا أنه كان كثير التردد على مكتبة الجامعة لالتهام كتب الأدب التى تزخر بها . كذلك كان يتردد على « أتنيو مدريد » وهو المركز الثقافى والفنى المعترف به فى العاصمة ، وكان يمثل الثقافة التقليدية للبلاد ، ويوجد مثل له فى كل مدينة اسبانية .

غير أن تكوين لوركا الفنى والثقافى لا يرجع الى الكتب فحسب ، بل وأيضا الى كوكبة الثريا من الأساتذة والزملاء والأصدقاء من شعراء ورسامين وموسيقيين ممن حفلت بهم الحياة الثقافية والفنية فى ذلك الوقت . وكانت ثمة مجموعة من الأصدقاء توثقت عرى المحبة والود بينهم وبين لوركا أكثر من غيرهم - سيدضم الى بعضهم فيما بعد ليكونوا فيما بينهم جيلا جديدا من الأدباء والفنانين هو جيل ٢٧ . ومن هؤلاء « خيراردو دييجو » ، « داماسو ألونزو » ، « لويس ثيرونورا » ، « بدرو سالييناس » ، « فيسنتى الكساندرى » ، « أدواردو ماركينا » ، « خورخيه جيين » ، « سلفادور دالى » ، وذلك جانب رهط الغرباطيين الذين انتقلوا الى مدريد وهم « رافايل

البرتي ، « مانويل أنخليس أورتيث » ، « اميليو برادوس » ، « مانولو التولاجيرى » ، « ملشور فرناندز الماجرو » . وقد أصبحت هذه الأسماء ، كما هو الحال مع لوركا ، شهيرة فيما بعد ، ومنهم من حصل فى السنوات الأخيرة على جائزة نوبل للأدب ، وهو فسنتى الكساندرى .

وقد أضرم هذا الجو الفنى والأدبى النار فى قواد لوركا ، الذى كان مشتتلا أصلا بحب كل ما هو فن وشعر ، وأسهم هو فى هذا الجو بما كان لديه من خيال شعرى وموسيقى وطريقة للحياة المكرسة للفن الخالص . ويضيف مؤرخ حياته « لويس كانو » : « غير أن أكثر ما كان يجتذبه هو الحياة نفسها بما فيها من عروض حية ثرية ، وحرية تجربة مشاعر وانبطاعات متنوعة عميقة . ولو أنهم خيروه بين الأدب والحياة لاختار الحياة ، مع كل ما يمكنه من حب للأدب والفن . لقد كان همه الأول أن يحيا ويرى من يحيون حوله » .

وهكذا كانت حياة لوركا فى مدريد وفى المدينة الجامعية بها ، مهرجانا متصلا من اللقاءات والموسيقى والشعر وتبادل الانبطاعات وأحاديث الصداقة والفن . وكانت لقاءات الأصدقاء تتم فى أماكن كثيرة من مدريد ، وكان لوركا يحب التجوال فى الحى القديم من المدينة ، بساتينه القروسطية الساحرة ، وأرتياد منتزه العاصمة الأنيق المسمى « الرتيرو » ، أو حضور عروض الرقص الشعبى « الفلامنكو » ، والاستماع الى أغانيه الشعبية التى تحاكي إيقاع الانشاد العربى القديم تمام المحاكاة . وإلى جانب هذا ، كان لوركا يتردد على عدة حلقات فنية وأدبية تحاكي ندوة « الركن الصغير » الغرناطية ، ولكن فى صورة أوسع . وكان من أشهر تلك الحلقات حلقة مقهى « الاديو » ، وحلقة مقهى « البرادو » التى يغلب عليها اتجاه « الماورائية » الذى تأثر به لوركا فى بعض قصائده ولوحاته عن طريق صداقته لنجم الحلقة الرسام « باراداس » . كذلك تردى الشاعر على حلقة كاتب جيل ٩٨ المشهور « فايى انكلان » التى كان يعقدها فى عدة أماكن مختلفة وكان يتردد عليها كثير من زملائه الكتاب والفلاسفة .

مسرحية فاشلة وديوان ناجح

وسرعان ما تعرف لوركا على كثير من شخصيات عالم الفن والأدب في مدريد . وكان من بين من تعرف عليهم « جريجوريو سييرا » ، مدير مسرح « اسلافا » أحد كبار المسارح في العاصمة ، وهو واحد من الشخصيات الأشد تأثيرا ونفوذاً في الحياة المسرحية آنذاك . وحدث أن استمع ذلك المسرحي الكبير الى شاعرنا وهو يتلو نوعاً من الحكاية الخرافية الشعرية تدور حول فراشة جميلة يتحطم جناحها فتسقط في عش للجداجد ، حيث ترعاها الأم الحشرة ويقع الابن في غرامها . ولكن ما أن تشفى الفراشة حتى تطير هاربة من ذلك العش الكريه ، تاركة وراءها الصرصور الصغير ينعى حبه . وأعجب « دون جريجوريو » بالقطعة الشعرية أعجابه شديداً ، واقترح على لوركا أن يقوم بتحويلها الى مسرحية ، عارضا تقديمها على خشبة المسرح الذي يتولى إدارته . ووافق لوركا ، رغم أنه لم يكن قد كتب للمسرح من قبل ، ولكنه اعتمد على وفرة قراءاته للمسرح الاسباني ودراسته الجيدة له ، وكذلك لأن موضوع الخرافة الشعرية كان يشده ويعيد اليه ذكريات طفولته حين كان يقضى النهار مطارحاً الحشرات والهوام الحديث . وأتم الشاعر كتابة المسرحية ، واختار لها « دون جريجوريو » عنوان « سحر الفراشة للعين » ، وهو الاسم الذي نشرت به بعد ذلك في الأعمام الكاملة للوركا . وقد انقسم أصدقاء لوركا بصدد هذه المسرحية الى فريقين ، فريق متحمس للشاعر الا أنه يرى أن مثل هذه المقطوعات لا تناسب المسرح الاسباني ولا تتفق مع ذوق رواده ، بكل تقليديتهم وتحفظهم . وفريق آخر ذهب الى حد أبعد في رد فعله تجاه المسرحية

فأشار عليه بأن يمزقها كلية . ولكن مخرج المسرحية - وهو المسرحي المدير دون جريجوريو - أصر على تقديمها ، معتبرا إياها صيحة طليعية أخرى تضاف الى التقاليع الدادائية(*) التي كانت قد بدأت تنتشر في ذلك الوقت . وهكذا كان ، وأفتتحت المسرحية في ليلة ٢٢ من مارس ١٩٢٠ . وصدقت توقعات الأصدقاء ، فان جمهور مدريد - الذي ألف مشاهدة أشخاص واقعيين يجسدون أفكارا وعادات وتقاليد قريبة الى ذهنه - لم يكن ليبتلع فكرة مسرحية يلعب ممثلوها أدوار الحشرات . ورغم الاطار الفني الذي توفر للمسرحية، من ديكورات « باراداس » و « ميجنوني » ، وموسيقى « ديبوسى » و « جريج » ، وتمثيل المثلة المشهورة آنذاك « أرجنتينا » ، الا ان الجمهور قابلها بالتعليقات الساخرة وشيوعها بالصفير ودق الأرجل ، فغطى على جماعة أصدقاء لوركا وزملائه الذين صفقوا تشجيعا له . ولم يستمر عرض المسرحية أكثر من تلك الليلة اليتيمة . غير أن هذا الفشل لم يكن ليفت في عضد شاعرنا المحب للحياة ، والذي صاحب رفاقه بعد العرض الى أحد مطاعم مدريد للاحتفال بعرض المسرحية وبفشلها الجماهيري في نفس الوقت .

على أنه اذا كان ذلك هو مصير أول أعمال لوركا المسرحية ، فان الأمر قد اختلف بالنسبة الى أول دواوينه الشعرية . وقد تطلب الأمر منه وقتا طويلا حتى يقتنع بالحاح أصدقائه بضرورة جمع القصائد التي يلقيها عليهم وطبعها في ديوان يحمل اسمه . وهكذا يصدر ديوانه الأول تحت اسم « كتاب أشعار » في ١٥ من يونيو ١٩٢١ ، ويضم بين دفتيه ٦٨ قصيدة هي حصيلة ما كتبه في السنوات الثلاث الماضية . وقد كتب الشاعر في مقدمته لهذا الديوان : « اننى أقدم فى هذا الكتاب صورة صادقة لما كانت عليه

(★) حركة فنية تأسست عام ١٩١٦ في زيورخ على يد « تريستان تزارا » ، تؤكد على أهمية التعبير الفطرى الذى لا يخضع للعقل والمنطق ، واختير اسمها بحيث لا يعنى أى شئ على الإطلاق . انتقلت الى باريس مع مؤسسها عام ١٩٢٠ ، وانضم اليها الشعراء المجددون ومنهم بريتون وأراجون وابلوار . تطورت بعد ذلك الى السريالية .

فترة طفولتي وصباي ، تلك الأيام التي تربط بين الماضي وبين
ما أعيشه الآن من أوقات • وعلى الرغم من أوجه القصور فيه ، فإن
قصائده تذكرنى بكل خطوة من خطى طفولتي الزاهرة بالمشاعر ،
وأرأى فيها وأنا أجرى وسط الحقول ، بينما الجبال تنتصب شاهقة
على البعد » •

وهكذا كانت قصائد الديوان حقا تمتلئ بذكريات الريف ، من
نباتات وحيوانات وطيور وهوام ، مع المشاعر الانسانية الصادقة
التي تنبض تجاه هذه العناصر التي أفعمت حياة الشاعر فى طفولته
•• وثبتت هنا نص حكاية شعرية خرافية – تماثل الحكاية التي كانت
مدنسا المسرحية الأولى الفاشلة – وهى مثال على هذا النوع الذى
أغرم به لوركا ، بعنوان « لقاءات قوقع مغامر » وظهرت فى ديوانه
الأول :

الصباح الهادئ

ينضح عذوبة صبيانية •

والأشجار

تبسط أذرعتها نحو الأرض •

ويخار راجف

يغطى الحقول المزروعة

وتنسج العناكب فى الهواء

طرقا من الحرير ،

خيوطا من الببلور الصافى •

وفى ممر الأشجار

يتلو غدير انشودته وسط الأعشاب •

والقوقع ،

برجوازي الطريق المسالم

يتأمل المكان

فى غفلة ورقة •
ويعث فيه هدوء الطبيعة الالهى
عزما وجراة
ونسى آلام مسكنه
فتاق أن يرى نهاية الطريق
أخذ يمشى ويمشى
ودخل فى غابة من اللباب والقريض
كان بها صفدتان عجوزان ،
أخذ منهما الضجر والأمراض ،
تتشمسان •



كانت احدهما تتمتم :
« هذه الأعانى الجديدة
لا نفع فيها » •
وردت عليها الأخرى ،
جريحة كانت وعمياء :
« كلها يا صديقتى كلها
حين كنت فى مقتبل حياتى
آمنت بأنه لو سمع الله أغانينا فى النهاية
لأعقد علينا من رحمته •
وبعد أن عشت هذا الدهر
فأننى لا أؤمن بذلك بعد عن خبرة
ولهذا فأننى لم أعد أغنى •• »



كانت الضفدعتان تشكوان
وهما تطلبان حسنة
من ضفدعة شابة
تمر في زهو وخيلاء
وسط أعواد العشب

✱

وارتعب القوقع امام منظر الغاية
اراد ان يصرخ
ولم يستطع
واقتربت منه الضفدعتان

✱

قالت الضفدعة العمشاء :
« هل هو فراشة ؟ »
وردت الأخرى :
بل ان له قرنين •
انه القوقع •
اننت من موطن آخر ايها القوقع ؟ »

✱

- « لقد خرجت من مسكني
وارغب ان اعود اليه سريعا »
- « انه حشرة غاية في الجبن »
قالت الضفدعة العمشاء متعجبة :

!لا تغنى أبدا ؟
- لا أغنى
- ولا تسبح !
- كلا • لم أتعلم أبدا •
- ولا تؤمن بالحياة الأبدية ؟
- وماهى ؟
- هى الحياة أبدا فى المياه الساكنة
الى جانب أرض مزهرة
تعطى لنا لذيذ الطعام •
- قالت لى جدتى المسكينة
حين كنت صغيرا
اتى سارحل عند مماتى
عبر الصحائف الطليئة
للأشجار العالية
فقالت الضفدعتان غاضبتين :
- ما كانت جدتك سوى كافرة
ان الحقيقة هى ما نقوله لك •
صدقنا •

※

وهتف القوقع باكيا وهو يئن :
- « لماذا راودتنى نفسى الى رؤية الطريق ؟
أجل ، اننى أؤمن دائما بالحياة الأبدية
التي تبشـرـانى بها •• »

※

وابتعدت الضفدعتان
يستغرقهما الفكر
وانطلق القوقع مذعورا
يضرب في جنبات الغابة •

✱

وسكنت الضفدعتان الشحاذتان
كأبى الهول
ويتساءل احدهما :
- هل تؤمنين أنت بالحياة الأبدية ؟
وترد الضفدعة الجريحة العمشاء في حزن :
- كلا •• لست أنا •
- ولماذا قلنا للقوقع اذن أن يؤمن ؟
وتقول الضفدعة العمشاء :
- لماذا •• ؟ لا أدري لماذا
أن الانفعال يغمرنى
حين أشعر بالاصرار
الذى ينادى به أبنائى الله
من عند التربة •

✱

ويعود القوقع المسكين أدراجه •
وعبر الطريق •••
ينبجس صوت متمواج من ممر الأشجار
ويتلاقى القوقع مع جماعة من النمل الأحمر

تسير صاخبة جلبة
تجر وراءها
نملة قد تقصفت قرونها
ويصيح القوقع : صبرا أيتها النملات
لماذا تسئن هكذا لزميلتك ؟
أحكين لى ما فعلت
وساحكم بالعدل
أحكين لى أيتها النملات » •



وتقول النملة التى شارفت على الموت ،
تغمرها الأحزان :
« لقد رأيت النجوم ! »
وتصيح النملات المهتاجات :
ماهى هذه النجوم ؟
ويتساءل القوقع متفكرا :
النجوم ؟
وتكرر النملة « أجل
لقد رأيت النجوم
صعدت الى أعلى شجر فى ممر الأشجار
ورأيت آلاف العيون
تطل من أفاق الغياهب »
ويسال القوقع :
ولكن ، ماهى هذه النجوم ؟
- انها أنوار

نحملها فوق رؤوسنا
وتعلق النملات الأخريات :
نحن لم نرها •
ويقول القوقع :
لا يصل بصرى الا الى الأعشاب

✱

وتتعجب النملات الأخريات
وهن يحركن قروهن :
سنقتلك •
ما أنت الا كسولة متحرفة
ان العمل هو شرعك

✱

وتقول النملة الجريحة :
لقد رايت النجوم
ويصدر القوقع حكمه :
اتركنها تمضى
واذهبن اثثن الى شئونكن
فحالا سوف يهداها التعب
فتموت

✱

وعبر الهواء العذب
تمر نحلة
وتشم النملة المحتضرة

عبير الأصل المتراعى
وتقول : أهو من يأتى
كما يحملنى معه الى النجوم ؟

✱

وتهرب النملات الأخرى
حين يرونها ميتة

✱

ويزفر القوقع
ويبتعد مذهولا
وقد غمرته الحيرة
بسبب الأبدية الخالدة
ويهتف : الطريق بلا غاية !
ربما كان يفضى الى النجوم
ولكن تشاقلى الشديد سيمنعنى من الوصول •
- يجب ألا افكر فيها •

✱

كان الضباب يغطى كل شىء
من شمس فاترة وغمام
وأصوات أجراس بعيدة
تدعو الخلق الى الكنائس
والقوقع ،
برجوازى الطريق المسالم
يتأمل المكان
فى ذهول وقلق

ويتبين من استعراض قصائد هذا الديوان أن لوركا لم يكن قد دخل بعد الى عالم الرمزية الذاتية التي ستغير شعره بعد فترة ما بما يتضمنه من صور واستعارات شعرية غريبة ، بل جاء شعره فيه اسبانيا أصيلا يضرب بسهم في عالم الواقع ودنيا الفولكلور الشعبي عميق الجذور . لقد كانت هذه القصائد نوعا من التعبير الأندلسي ، يتغنى فيها الشاعر بالمظاهر المحسوسة في بيئة ريف الأندلس العاطر ومدنه . ونجد في هذا الديوان أيضا تأثيرات شاعر نيكاراجوا « روبين داريو » ، « خوان رامون خيمينث » ، والشاعر الفرنسي « بودلير » . وكان أهم ما أخذه عن « داريو » رائد الحداثة في الشعر الاسباني ، الشعور المتساوي بالطبيعة والخوف المبهم من المستقبل ، والحيرة بين الكتابة والمزاح ، وكذلك مزج غنائيته بأفكار فلسفية بسيطة . وتبرز هذه العناصر في قصيدة رائعة من قصائد هذا الديوان :

اليوم أشعر في فؤادي باختلاجات غريبة

للتجـوم

ولكن خطواتي تفقد مسارها

في روح الغيوم

الضوء يقطع أجنتي

وعذابات أحزاني

تغمر ذكرياتي في نبع أفكارى

✱

كل الورود بيضاء

بيضاء كـأحزاني .

وليس البياض في الورود ذاتها

بل أن الثلج قد غطاها

وقبلا سطع عليها قوس قزح .

والروح أيضا تعرف ثلجها
وثلج الروح له ندف من القبلات
وأشكال تسقط فى قاع الظلمة
أو فى نور من يفكر فيها •

✱

ويسقط الثلج من على الورود
ولكن ثلج الروح يبقى
وتصوغ قبضة الزمان منه كفنا أبديا •

✱

هل ياترى يذوب الثلج
حين يحملنا الموت الى غياهبه ؟
أم سيكون هناك ثلج آخر
وورود أخرى أكثر كمالات ؟
هل سيحل علينا السلام
كما قال لنا الرب
أم لن يكون هناك حل أبدا
للمشكلة ؟

✱

وماذا لو كان الحب خداعا ؟
من يشجعنا على الحياة
لو جرفنا الشفق
فى تيارات العلم الحقيقى

علم « الخير » الذى يكاد لا يكون له وجود
وعلم « الشر » الذى يكمن فى كل طريق ؟



لو أن نور الأمل انطفأ
وبدا عصر بابل
أى مشعل سينير الطريق على الأرض ؟



لو أن الزرقعة مجرد حلم
ماذا سيكون من أمر البراءة ؟
ماذا سيكون من أمر الفؤاد
لو أجذبت ينابيع الحب ؟
لو أن الموت هو موت
ماذا سيكون من أمر الشعراء
ومن أمر الأشياء النائمة
التي لم يعد أحد يتذكرها ؟
آه يا شمس الآمال !
يا أيتها الرمال الرقراقة !
أيها القمر الجديد !
يا أفئدة الأطفال !
يا أرواح الأحجار الصلبة !
اليوم أشعر فى قوادي باختلاجات غريبة
للنجوم
وكل الورود
بيضاء كحزاني ؟

وقد لقي هذا الديوان صدًى طيباً لدى القراء والنقاد . وفى سياق عرض قصائد الديوان والتعليق عليها ، أعلن النقاد مولد شاعر إسباني جديد ذى موهبة دافقة هو فديريكو غرسيه لوركا . وجاء الاعتراف بموهبة الشاعر من لدن أحد أبرز شعراء الاسبانية ، هو خوان رامون خيمينيث ، الذى أعجب بقصائد الديوان ودعا لوركا الى المساهمة بقصائده فى مجلة أدبية مرهوقة كان يصدرها أيامها هى مجلة Indice أى « الدليل » .

ويوفر هذا النجاح والاعتراف الأدبى دفعة جديدة لشاعرنا ، فيقبل على الابداع الشعرى بكل قواه . ورغم أن القصائد التى وضعها بعد نشره لديوانه الأول مباشرة لم يجمعها ديوان الا فى وقت متأخر - ديوان « أغان » الذى نشر فى عام ١٩٢٧ وديوان « أغان أولى » الذى لم ينشر الا قبيل وفاة الشاعر فى ١٩٣٦ - الا انها ترجع فنيا الى تلك الحقبة من حياته ، ما بين عام ١٩٢١ وعام ١٩٢٤ ، وتعتبر قصائد هذين الديوانين امتدادا لديوانه الأول من حيث التغننى بموضوعات شعبية وطفولية ، الا أن النغمة الشخصية الغنائية فيها أوضح ، وتمتزج فيها دفعة الحياة بالاحساس بوقع الموت . ورغم أن معظم تلك القصائد يتسم بشكل بسيط خفيف الا أن موضوعاتها ليست بالبسيطة أو الخفيفة أبدا . ورغم أنها تستخدم أغاني الأطفال التقليدية الشعبية ، وأن معظمها موجه فعلا للأطفال ، الا أن القارئ يحس على الفور أن هذا الاهتمام من جانب الشاعر هو اهتمام أكثر تعقيدا ، وأن نظرته فيها ليست بالطفولية . انظر الى تلك القصيدة مثلا . تلحظ أن مقصده لم يكن أبدا اخراج قصيدة أو أغنية بسيطة موجهة للأطفال :

إذا أنا قضيت

فاتركوا شرفتى مفتوحة

هاهو الطفل يأكل البرتقال

انى أراه من شرفتى المفتوحة .

هاهو الفلاح يحصد القمح

انى احس به من شرفتى المفتوحة •

اذا انا قضيت •

فاتركوا شرفتى مفتوحة •

وهناك أيضا كثير من « ثيمات » الاحباط والضياع والموت
تلقى ظلالها على مسرح القصائد الطفولى :

عبر أشجار الغار

تطير حمامتان دكناوان

كأنت أولاهما الشمس

والأخرى هى القمر •

قلت لهما : أيا جارئاي

أين قبري ؟

قالت الشمس : فى ذيلى

وقال القمر : فى حلقى

✱

وأنا الذى كنت أسير

وقد تمنطقت بالأرض

رايت نسرين من مرمر

وفتاة عارية

كان الواحد منها هو الآخر

ولم تكن الفتاة أيا منهما

قلت لهما : أيها النسران الصغيران

أين قبري ؟
قالت الشمس : فى ذيلى
وقال القمر : فى حلقى
وعبر اشجار الكرز
رأيت حمامتين عاريتين
كانت احدهما هى الأخرى
ولم يكونا أيا منهما •

وثمة قصائد أخرى ألهمت نقادها - بموضوعاتها التى تمزج
بين التشاؤم والبهجة - الرجوع فى تفسيرها وشرح صورها الفنية ،
لا الى الفولكلور الأندلسى ، بل الى نظريات « فرويد » و « ويونج » ،
بل و « جيمس فريزر » •



صداقتان حميمتان

مرت بحياة لوركا المبكرة علاقتان من علاقات الصداقة الحميمة ضربتا بجذورهما فى أعماق نفسه وكان لهما أثر عميق فى تكوينه الفنى ، فى مظهرين أساسيين : الموسيقى ، والرسم . ورغم أن لوركا قد أسهم فى هذين الكيدانين أسهما ملحوظا ، إلا أن أهميتهما تكمن فى الأثر الذى خلفته ثقافته الموسيقية والتصويرية – وابداعاته فيها – على أدبه وشعره . وقد تبلورت صداقاته هاتان – مع الموسيقار الأسباني الكبير « مانويل دى فايلا » والرسام السريالي « سلفادور دالى » – فى هذه الفترة من حياته ، بعد صدور ديوانه الشعرى الأول .

وترجع صلة لوركا بدى فايلا الى عهد صبا الشاعر ، حين كان يقضى أمسيات عديدة مع أصدقائه من الفنانين الشباب فى كرمه دى فايلا بغرناطة التى أطلق عليها اسم « اسلام عليك يامريم » . وكان الموسيقار الأسباني قد أغرم بمدينة غرناطة وقرر بعد عودته من باريس أن يقيم فيها اقامة دائمة مع أخته فى تلك الكرمة ، التى تحولت بعد وفاته الى متحف . وكثيرا ما كان لوركا يجلس الى البيانو الخاص بالموسيقار ليسمع الحاضرين الحانا وأغاني شعبية من أدائه . وكان فايلا ولوركا يكتنان الإعجاب بفن احدهما الآخر ، فالموسيقار معجب بموسيقية الشاعر ، الى حد أنه هتف مرة متعجبا : « كم أود أن أكتب شعرا بالمهارة التى يعزف بها فديريكو على البيانو » . أما لوركا فكان يرى فى « فايلا » تجسيدا لغرامه الأبدى بالموسيقى ، وذوقا فنيا مشتركا بينهما فى الايمان بالرؤية الأندلسية فى الحياة . وكان لوركا يحرص بعد انتقاله للإقامة فى مدريد على

زيارة الموسيقىار كلما عاد الى غرناطة لقضاء أجازة من أجازاته ٠٠
وفى احدى تلك الزيارات ، نبعت من أحاديث الصديقين ومناقشتهما
فكرة عقد مهرجان ومسابقة للغناء الفلامنكو القديم الذى يطلق عليه
اسم الغناء العميق «Cante Jundo» وهو الغناء الشعبى الأندلسى
بكل فروعه ٠ ويتصف هذا النوع من الغناء الشعبى برنة الكآبة
التي تشيع فيه ، وهو غناء يركز على أحاسيس المغنى الفردية الدفينة
ويعبر المغنى من خلاله عن طقوس من المشاعر تنبجس من داخل
النفس بشكل طوعى فطرى ، ويؤديه المغنون دون هدف للربح فى
المقامى والحانات وصلات الرقص الشعبى ٠ وقد أرجع كثير من
دارسى الفنون هذا النوع من الغناء الى تأثير الاغانى والالحان
العربية أيام الوجود العربى الاسلامى فى اسبانيا ، وامتزاجها
بالاغنى المحلية فى الأندلس ، فأخرجت هذا النوع المتميز من الغناء
الذى يختلف عن أى أغان وألحان شاعت فى بقاع أوروبا الأخرى
غير اسبانيا ٠

وقد فكر الصديقان لوركا ودى فايا فى اقامة هذا المهرجان
بدافع حبهما المشترك لذلك الفن ، وكحافز للعاملين فى هذا المجال ،
وحرصا على استمراره وتغذيته ٠ وكان عليهما أن يخلقا جوا تمهيديا
للمهرجان ، فقام « دى فايا » بنشر مقال عنوانه « الغناء العميق :
أصوله وقيمته الموسيقية وأثره فى الفن الموسيقى الأوروبى » ، وألقى
لوركا محاضرة فى المركز الفنى الغرناطى عنوانها « الغناء الأندلسى
البدائى » ، نشر نصها بعد ذلك فى احدى صحف المدينة ٠ وبهدف
جمع الأموال اللازمة للانفاق على تنظيم المهرجان ورصد جوائز
للفائزين فى مسابقة أفضل المنشدين ، أقيم حفل خيرى فى فندق قصر
الحمراء بغرناطة ، تلا فيه لوركا أشعارا جديدة عرفت بعد ذلك
باسم قصيدة الغناء العميق ٠ وافتتح المهرجان أخيرا فى مساء
١٣ من يونيو ١٩٢٢ ، فى ميدان « الحب » بقصر الحمراء العربى ،
وتكونت لجنة التحكيم فى المسابقة من « دى فايا » و « أندريس
سيجوفيا » و « وماويل شاكون » ، أثمة الموسيقى الاسبانية وقتذاك ٠
وخلال ليلتين متتاليتين ، اهتزت غرناطة كلها طربا بأغاني
المتسابقين ٠

وقد كسب انتاج لوركا من هذا المهرجان تلك القصائد التي
وضعها للتمهيد له ، وهى قصائد تتسم بكل ماهو قائم وحزين من
الغناء الفلامنكو ، وقد صدرت فى صورة ديوان مستقل بعد ذلك ،
فى عام ١٩٣٢ . ومنها تلك الأغنية المليئة بالشجن :

بدأ نحيب القيثارة
وانحطمت أقذار الفجر
بدأ نحيب القيثارة
وعبثا اسكاتها
مستحيل اسكاتها
تنتحب فى ايقاع رتيب
كما تبكى المياه
وكما تبكى الرياح
فوق تلال الثلوج
مستحيل اسكاتها
تبكى أشياء قصية
رجال الجنوب الساخنة
التي تشتاق الى الزنايق البيضاء
تبكى سهاما بلا أهداف
أصبلا دونما غد
وأول الطيور ميتا فوق الأغصان
آه أيتها القيثارة !
وقلبي
الذى أثنخته بالجراح
خمسـة سيوف

وقد استمرت صداقة لوركا ودي فايا حتى النهاية ، وإن كان قد اعتورها بعض الفتر نتيجة لشعور فايا بالاساءة من بعض سطور قصيدة كتبها لوركا عام ١٩٢٨ بعنوان « أنشودة الى قدس الأقداس » واهداها الى الموسيقار العظيم . وقد غضب دي فايا ، التقى الورع من تلاعب الشاعر المعتاد بالألفاظ ومن صورده الشعرية الجريئة وهو يتناول ذلك الموضوع الدينى ذا الحرمة التقليدية . وحدث جفاء قصير بين الصديقين ، ولكنهما سرعان ما تمكنا من تنقية الجوى ونسيان ما حدث . وقد حاول دي فايا بكل الطرق التوسط لانتقاذ صديقه لوركا من مصيره المحتوم من اندلاع الحرب الاهلية عام ١٩٣٦ ، ولكن جهوده كلها راحت أدراج الرياح ، كما سوف نعلم فى حينه .

وكانت ثانية صداقات لوركا الخلاقة مع الرسام السبيريالى « سلفادور دالى » . وقد بدأت تلك الصداقة فور التحاق دالى بالمدينة الجامعية بمدريد عام ١٩٢٣ والى ما بعد شدة الرحال الى باريس فى عام ١٩٢٩ بعد طرده من مدرسة الفنون الجميلة بمدريد . وقد أثر سلفادور دالى بأرائه الطليعية فى الفن فى كثير من زملائه الطلاب . وقد تبلورت تلك الآراء فيما بعد فى انضمامه الى الحركة السبيريالية بقيادة « أندريه بريتون » فى باريس . وكان من أبرز من تأثروا بدالى وآرائه - عدا لوركا - صديقهما وزميلهما المشترك فى المدينة الجامعية « لويس بونيوييل » الذى اشترك مع دالى فى عمل أول فيلمين سبيرياليين ، اثار أولهما - وهو فيلم « كلب أندلسى » ضجة صاخبة عند عرضه لأول مرة فى باريس عام ١٩٢٨ ، رغم أن مدة عرضه لا تزيد على نصف الساعة . وقد كتب دالى سيناريو هذين الفيلمين ، وأخرجهما بونيوييل . وقد أصبح دالى بعد ذلك أمام الرسم السبيريالى ، وأصبح بونيوييل أمام السمينائيين السبيرياليين ، وقد فاز بالأوسكار لأحسن فيلم أجنبى عام ١٩٧٢ عن فيلمه « سحر البرجوازية اللطيف » .

وقد جمع بين لوركا ودالى حب التجديد والتطوير الفنيين علاوة على الرسم الذى كان أحد الموضوعات التى أغرم بها لوركا

وضرب فيها بسهم وافر ، حتى ان طبعة اعماله الكاملة تحتوى
- بالاضافة الى أدبه - عددا كبيرا من لوحاته الفنية .

وقد تعمقت الصداقة بين دالى ولوركا فى اواخر عام ١٩٢٥
بعد دعوة دالى لصديقه الغرناطى لزيارته وقضاء اجازة عنده فى
بلدته « قداقش » ، وهى بلدة بحرية صغيرة من أعمال « برشلونة »
عاصمة مقاطعة قطلونيا فى الشمال . وسرعان ما اندمج الشاعر
مع أسرة صديقه : هو يسمعهم من قصائده وأغانيه وموسيقاه ، وهم
يعرضون عليه فنونا قطلونية أصيلة . وفى بيت دالى قرا لوركا على
الأسرة لأول مرة مخطوطة مسرحيته الجديدة « ماريانا بنيدا » التى
لاقت أعجابا دفع الأب الى دعوة أصدقائه لسماع الشاعر وهو يتلوها
عليهم مرة ثانية .

وكان طبيعيا أن ينهمك الصديقان فى فترة الزيارة فى مناقشات
عديدة حول طبيعة الفن وإمكانيات التجديد الفنى . وقد تأثر لوركا
باتجاه التجديد لدى دالى الذى ينحو نحو السيريالية . وكانت
المدرسة السيريالية قد انشقت عن الحركة « الدادائية » وتأسست
كحركة مستقلة على يد الشاعر الفرنسى أندريه بريتون عام ١٩٢١ .

وقد تحددت الحركة أكثر عام ١٩٢٤ حين أصدر بريتون
ورفاقه بياناً أكدوا فيه سمات الحركة ، وأبانوا فيه أن الحرية هى
أساس السيريالية ، وأول الحرية عند الفنان هى الخلاص من قواعد
الفن . وقد انتشرت هذه الحركة بعد ذلك فى أوروبا كلها وصبغت
كل الفنون بصبغتها وان اختلفت كل حالة عنفا وخفة حسب اختلاف
أنواع الفنون . وقد امتدت السيريالية الى الشعر والقصة ، ولكنها
كانت أشد ظهوراً فى الفنون التصويرية ، فبرزت فى الرسم والتصوير
والسينما والنحت .

وكان لوركا فى طبيعة الأدباء الذين تأثروا بالاتجاه السيريالى ،
وظهر ذلك فى شعره فى اختياره للصور الفنية فى قصائده . وقد
بدأت هذه الصور الغريبة تغزو شعره وتستبين فيه تدريجياً ، منذ

قصائد ديوانه « حكايا الغجر » ، الى أن وصلت الى أقصى ذروتها من السيرىالية الحقّة فى قصائد ديوانه « شاعر فى نيويورك » .

كذلك فان صداقة لوركا - بل وحبّه - لأخت الرسام دالى ، « آن مارى دالى » ، قد أثرا كثيرا على حياته العاطفية . ورغم أن المعلومات عن هذه العلاقة غير واضحة ولا هى متوفرة ، الا أن كثيرا من مؤرخى حياته يرجعون الأزمة العاطفية التى مر بها فى عام ١٩٢٩ الى فشل هذا الحب وتحطمه ، والتى لم يجد الشاعر دواء منها الا السفر خارج بلاده الى نيويورك حيث قضى عاما وبعض العام فى الخارج .

وقد خرج لوركا من زيارته الأولى لدالى فى « قداش » بقصيدة عنوانها « أنشودة الى سلفادور دالى » نشرت عام ١٩٢٦ فى المجلة الفكرية الشهيرة التى كان يصدرها المفكر الاسباني « خوسيه أورتيجا اى جاسيت » وهى « مجلة الغرب » « Revisat del Occidente » . ونورد فيما يلى تلك القصيدة لأهميتها فى الدلالة على الاتجاه السيرىالى الذى بدأ الشاعر فى انتهاجه للتعبير عما يجيش فى نفسه من عواطف وأفكار .

وردة فى البستان العلوى الذى هفوا اليه
طوق يدور فى أعراف الفولان الصافي
وجبل الغيوم الانطباعية قد نضا عثه الثياب
بينما الرماديات تطل على حواجزها الأخيرة .



الرسامون الجدد ، فى مراسمهم البيضاء
يقطنون زهرة الجذر التريعى المعقمة
وفى مياه السنين جبل ثلجى من المرمر
يغطى النوافذ بالبرودة ويهش على أغصان اللبلاب



الناس تطأ الشوارع المغطاة بالبلاط قى قوة
والبللورات تعرض عن سحر الانتكاس •
هاهى الحكومة قد أغلقت محلات العطور
والآلهة تخلد فرجاراتها المتثنية •



غياب من الغابات والسواقر والجبهات
يزحف على أسطح المنازل العتيقة
والهواء يصقل عدساته على صفحة البحر
ويرتفع الأفق كما لو كان سدا عظيما للمياه



بحارة يجهلون طعم النبيذ ومذاق الظلال
يذبحون جنيات البحر فى بحار من الرصاص
والليل ، تمثال الحصافة البهيم ذاك ،
قد طوق مرآة القمر المستدير بين يديه •



تتملكنا رغبة من الصور ومن الحدود
ويأتى الرجل المتطلع حاملا المقياس الأصفر
وفينوس طبيعة بيضاء مينة
بينما جامعو الفراشات يابقون



« قداقش » ، فى مؤشر من المياه والقتال
تدعم درجات حجرية وتخفى القواقع •
النايات الخشبية تنشر السكينة فى الهواء
واله هرم برى يوزع الفاكهة على الأطفال •



نيام صيادوك فى الرمال دوئما رؤى
وفى أعالي البحار يتخذون الورود « يوصلة » تهديهم
وأفق المناديل الجريحة العذرى
يوحد بين زجاج السمكة وبين القمر الهائل



تاج متيس من سفائن بيضاء
يجعد جيهاث مريرة وشعور من الرمال
حوريات البحر يقنعن ، ولكنهن لا يوحين
ويخرجن إذا لوحنا لهن بكوب من عذب المياه



آه ياسلفادور دالى ، ياذا الصوت الزيتونى
اننى لا أمتدح ريشتك المراهقة غير الكاملة
ولا لوتك الذى يحيط بلون زمانك
ولكنى أمتدح أشجائك كخالد تقيدته الحدود •



أيثها الروح القح ، تعيشين فوق رخامات جديدة
وتهريين من الغابة المظلمة للصور التي لا يصدقها عقل
تصل تهويماتك الى حيث تصل يدك
وتستمتع بانسودة البحر من نافذتك



يمتلئ العالم بظلال صماء وفوضى
يصطدم بها الانسان في أول اتصالاته بالدنيا
ولكن النجمات تخفي قطاعات طبيعية
تشير الى ملامح العالم الذي تعيشه كاملة



مجرى الزمن يتوقف ويعيد ترتيب نفسه
على الصور العددية لقرن وقرن آخر من الزمان
والموت المهزوم يلتجئ راجفا
الى دائرة اللحظة الآنية الضيقة •



عندما تمسك لوحة ألوانك ، ورصاصة في الجناح
تسعى الى الدور الذي يضيء كأس شجرة الزيتون
نور « منيرفا » العريض الذي يشيد السقالات
حيث لا مكان للنوم ولا لأزهاره السقيمة •



تسعى الى النور العتيق الذى ينوس على الجبين
النور الذى لا يهبط الى قم الانسان ولا يبلغ قواده
النور الذى تحشاه كرمات « باخوس » الحميمة
والقفزة الغاشمة التى تكمن فى منحدر المياه



انك تحسن صنعنا أن ترفع رايات الانذار
على الحد المظلم الذى يسسطع ليلا
فانت لا ترغب أيها الرسام أن يلين لك الشكل ،
ندفة القطن التى تتغير كأنها سحابة فجائية



انت لا تجرى وراء اختراع السمكة فى انائها •
ولا الطائر فى قفصه
لا فى البحر ولا فى الرياح
بل تجلو الغامض وتثقل الصور
بعد أن تضرب بحدقتيك الأمينتين
فى أجسادها الغضة المستدقة



تهيم غراما بالمادة المحددة الدقيقة
حيث لا تستطيع قباب الذبات أن تضرب خيامها
تهيم غراما بالمعمار المشيد فيما هو غائب
وتقبل الراية بوصفها دعاية لطيفة



- ينطق الفرجار الصلاب بقصيدته القصيرة اللدنة •
هاهى جزائر مجهولة تكذب صفحة الكون
وينطق الخط المستقيم بجهد العمودى
وينغنى الزجاج العارف برياضياته •



بل أيضا وردة البستان الذى تعيش فيه
دائما أبدا الوردة ، فى شمالنا وجنوبنا :
ساكنة ، مركزة ، كأنما هى تمثال أعمى
غافلة عما تثير من جهود خفية •



وردة طاهرة تزيج كل ماهو مصطنع مرسوم
وتفتح لنا أجنحة البسمة الحانية
(فراشة لصيقة ترن خطوات طيراتها)
وردة التوازن الذى لا يعرف الآلام المنشودة •
دائما أبدا •• الوردة •

آه ياسلفادور دالى ، ياذا الصوت الزيتوتى :
أنما أنا أنطق بما توحىه لى شخصيتك ولوحاتك
اننى لا أمتدح ريشتك المراهقة غير الكاملة
ولكنى أغنى لثبات الاتجاه فيما تطلق من سهام •



أغنى لجهودك الجميلة التى تزيئها الأنوار القطلانية
لحبك كل ما يحتمل تفسيراً
أغنى فؤادك الفلكى الحنون
كورق اللعب الفرنسى ، دون ما أية جراح



أغنى شوق التماثيل الذى تنشده دون ما كلل
الخوف من الانفعال الذى يترصدك فى الطريق
أغنى حورية البحر التى تتغنى بك
ممتطية صهوة دراجة من اللآلىء والأصداف



ولكنى اغنى قبل كل شىء فكرا مشتركا
يوجد بيننا فى الساعات الحالكة والذهبية •
ليس الفن هو النور الذى يعنى أبصارنا
بل هو أولا الحب ، الصداقة ، المثاقفة



هم أولا ، قبل اللوحة التى تخطها فى صبر
قبل نهدي « تيريزا » ذات البشرة اليقظانة
قبل عقصة شعر « ماتيلدا » ناكرة الجميل
صداقتنا الملونة كأنما هى لعبة السلام والتعايين -



آثار لآلة الكاتبة من دماء فوق الذهب
تسطر فؤاد قطالوتنا الخالدة



فلتنيرك نجومات كحفنات خالية من البوازي
بينما تزدهر رسومك وحياتك



لا تلق بالآل للساعة المائية ذات الأجنحة الغشائية
ولا لمنجل الاليجوريات القاسى ،
بل عليك أن تكسى ريشتك وتعريها فى الهواء دوما

أمام البحر الذى تعمده السفائن والبحارة •

وفى منتصف مايو عام ١٩٢٧ ، يزور لوركا « دالى » مرة
أخرى ، وينتقلان معا الى برشلونة للاعداد لتمثيل مسرحية « ماريانا
بينيدا » هناك • وقد استقبل فنانون قطلونيا وكتابها « لوركا » بحماس
بالغ ، وتعرف على أفراد الحركة الطليعية وعلى المجلة التى كانوا
يصيرونها باللغة القطلونية بعنوان « مجلة أصدقاء الفنون » ،
كما تعرفوا هم عليه وعلى إنتاجه • وكثيرا ما طاف لوركا ودالى ،
ومعهما الناقد القطلانى « سباستيان جاش » - بشوارع برشلونة
وازقتها الخفية ، يتناقشون فى صخب وحماس فى شئون الادب
والفن • ويحكى جاش قصة طريفة اشتهرت عن لوركا ، حين
اصطحب « لوركا » يوما ألى « أتنيو برشلونة » حيث قدمه الى ندوة
تضم شيوخ الادب والفن هناك ، حيث سأل أحدهم فى استهانة
« من أى البلاد أنت أيها الشاب ؟ » فرد عليه الشاعر وهو يرفع يده
عاليا فى رزائة : أنا من مملكة غرناطة ! • فالى هذا الحد كان
احساس لوركا بالمد الذى نالته بلده اثناء وجود العرب فيها •
ولا غرو أن يكون هذا الرد قد أدهش الحاضرين جميعا ، وزاد فيه
ما كان على فديريكو من مسحة شرقية وسمار عربى ، بشعره الأسود
وملامحه المحددة وخياله المتوقد •

وقد وضع لوركا أمله فى ذلك الوقت فى مسرحيته « ماريانا
بينيدا » التى عمدت فرقة الممثلة المشهورة « مارجاريتا شيرجو »
الى تقديمها على مسرح جوييا ببرشلونة فى يونية ١٩٢٧ ، وقام
بتصميم ديكوراتها سلفادور دالى • وكانت هذه ثانى مسرحية
يكتبها لوركا ، بعد مسرحيته الأولى التى فشل عرضها فى مدريد •
وقد قوبلت « ماريانا بينيدا » بنجاح ، ولاقت قبولا من النقاد ، وجلهم
من أصدقاء الشاعر • وهى وإن لم تكن قد ثبتت أقدام لوركا فى

المسرح ، إلا أنها قد عوضته عن فشل مسرحيته الأولى ، وجعلته يستمر في الكتابة المسرحية ، كيما يخرج بعد ذلك أعماله الناضجة الناجحة . وقد قال الشاعر عن ظروف كتابة تلك المسرحية : « لقد كانت حياة « ماريانا بينيدا » فكرة من أشد أفكار طفولتي تسلطا على . لقد كنا نلعب ونحن أطفال بأن نمثل المروحة وهي تنفتح وتنغلق ونحن ننشد :

أه ما اتعس هذا اليوم في غرناطة
الذى يجعل الحجارة تبكى من الحزن
عند مرأى « ماريانا » وهي تموت
على المشقة بدلا من أن تعترف

وتتبع المسرحية الخطوط الهامة للحياة الحقيقية لماريانا بينيدا ، التي ولدت في غرناطة عام ١٨٠٤ من أسرة كريمة وتزوجت أحد المناضلين من أجل الحرية ، الذي مات بعد الزواج بثلاث سنوات مخلفا لها طفلين . واحتضنت هي آراء زوجها الثورية وكفاحه من أجل حرية الشعب ، فمدت يد المساعدة الى المناضلين والمطاردين في عصر استبداد الملك فرديناند السابع ملك اسبانيا . ونجحت بذلكها ومهارتها في إبعاد الشبهات عنها . وانشغلت ماريانا في تطوير علم ضخم للثوار يستخدمونه عند اعلان ثورتهم ، كتبت عليه كلمات : « القانون ، الحرية ، المساواة » . ووشى بها أحد الخونة ، وسقط العلم في يد حاكم غرناطة الذي بادر الى اتهامها وسجنها . ولم يفلح التعذيب ولا المحاكمة في انتزاع أى اعتراف منها ، الى أن أعدمته في ١٨٣١ ، شهيدة للحرية .

وقد شجع نجاح المسرحية في برشلونة على عرضها في العاصمة مدريد ، حيث بدأت عروضها على مسرح « فونتالبا » في ١٢ أكتوبر ١٩٢٧ ولاقت نجاحا ملحوظا .

وقد تزامن مع عرض هذه المسرحية للمرة الاولى فى برشلونة افتتاح معرض لرسوم لوركا فى المدينة فى « جاليرى دالمو » . وقد استمر المعرض من ٢٥ من يونيو الى ٢ من يوليو ١٩٢٧ ، وتضمن ٢٤ لوحة ، منها لوحة رسم فيها لوركا صديقه « دالى » . وقد قدم دالى فى مقال له بمجلة « المجلة الجديدة » ، عرضا نقديا للمعرض ، وقدم « سباستيان جاش » عرضا آخر له . وانتهت إقامة الشاعر فى برشلونة بمأدبة تكريم حافلة أقامها له الفنانون هناك .

وقبل العودة الى مدريد ، أمضى لوركا اياما فى « قداش » مرة أخرى، عمل فيها مع دالى على وضع ما سمي « البيان اللافنى » وهو بيان يعبر عن آراء أصحابه الطليعية السيريالية فى الفن والأدب والحياة ، ويعتمد على تقرير اللاشخصانية واللاهوية واللاموضوع فى التعبير الفنى عموما . وقد تم نشر البيان فى أحد أعداد مجلة « أصدقاء الفنون » فى أغسطس ١٩٢٧ ، وترجمه لوركا ونشره عام ١٩٢٨ بالمعد الثاني من المجلة التى أصدرها ذلك العام فى غرناطة .



مهرجان اشبيلية وديوان الفجر

وفى ديسمبر ١٩٢٧ ، ينعقد فى « اشبيلية » مهرجان أدبى كان سببا فى اطلاق اسم جيل عام ٢٧ على لوركا وصحبه ، تميزا لهم كجماعة أدبية عن الجماعة الأدبية السابقة عليهم مباشرة ، وهى جيل ١٨٩٨ الذى أشرنا إليه فى مطلع هذا الكتاب . وقد استمد النقد هذا الاسم من اجتماع معظم أفراد هذه الحركة الأدبية والفنية فى « اشبيلية » بدعوة من « أتنيو اشبيلية » فى مهرجان أقيم لتكريمهم واتاحة الفرصة أمامهم لالقاء أبحاثهم ومحاضراتهم وانتاجهم الفنى فى ذلك المركز الثقافى ، بوصفهم شباب حركة فنية ناهضة أرهست أعمالهم بعصر ذهبي جديد للأدب الاسباني يضارع العصر الذهبي الأول أيام سرفانتس ولوبي دى فيجا .

ويتفق النقد الآن على أن أعضاء هذه الجماعة المؤسسين عشرة هم : فديريكو غرسيه لوركا - بدرو ساليناس - خورخى جيين - خيراردو ديججو - داماسو ألونسو - فيثنتى الكساندرى - رافاييل ألبرتى - لويس ثيرنودا - خوسيه برجامين - خوان تشاباس .

وكان أكثر ما يميز هذا الجيل وأفراده هو أنهم قد اتجهوا اتجاها مخالفا للجيل السابق عليهم مباشرة ، إذ عمدوا أساسا الى الرجوع الى الموروث الأدبى والفكرى الاسباني محاولين ابتعاثه وسبر أغواره والخروج منه بالأفكار الاسبانية الأصيلة . وعادوا الى درر الأدب الاسباني فى عصره الذهبي ، يستلهمونها ويعيدون تقديمها بروح تفسيرية ونقدية جديدة ، مما أدى الى ابتعاثهم مؤلفين

كان النسيان قد أسدل ستاره عليهم ، أبرزهم « لويس جونجرا » (١٥٦١ - ١٦٢٧) شاعر القرن السادس عشر الميتافيزيقي الاسباني . وكانت الأبحاث التي قدمتها جماعة ٢٧ فى مهرجان اشبيلية تدور حول ذلك الشاعر الغابر ، بمناسبة مرور ثلاثمائة عام على وفاته . وقد وجد أعضاء الجماعة فى شعره إرهابات فكرية للنزعة السيريالية التي كانت فى أوجها آنذاك . وكان أكثر ما عادوا اليه من التراث الاسباني - عدا أعمال « جونجرا » - أعمال سرفانتس ولوبي دى فيجا وكالديرون دى لباركا وفراى لويس دى ليون ويوحنا الصليبي وجوستافو أدولفو بيكر وكيبيدو ، وهم كلهم شوامخ الأدب الاسباني ممن صاغوا الضمير الاسباني فى عصرهم وفى كل العصور . غير أن هذا لم يمنع أن يتأثر أفراد جيل ٢٧ فى نفس الوقت بتيارات الحداثة التي وفدت الى أسبانيا من فرنسا والمانيا أساسا ، فكلهم تأثروا بالسيريالية والدادائية والماورائية Ultraism ، ومزجوا بينها وبين ملامح افكارهم الاسبانية الأصيلة فى وحدة فنية منصهرة .

كذلك تميز أعضاء الجيل بالاستعمال الفريد للاستعارة والصور الفنية فى أعمالهم ، إذ انهم قد تركوا لأنفسهم حرية مطلقة فى ربط أى شئ بأى شئ آخر يصل اليه خيالهم ، وبحثوا فى أعماق الشعور عن صلات خفية ذاتية بين الأشياء ، فانتجوا بذلك صورا شعرية جديدة غريبة فريدة . وستكون هذه الصور الفريدة أهم ما يميز اشعار لوركا فى مرحلته التالية ، والتي ستتخذ بعد ذلك منحى مبالغ فيه مع دخوله ذروة تلك المرحلة ، مرحلة السيريالية الشعرية .

وقد قام لوركا باعداد بحث عن شعر « جونجرا » استغرق منه ثلاثة شهور ، لالقائه فى مهرجان اشبيلية . وقد قال فى ذلك البحث : « ان الأساتذة يشيرون عادة الى « جونجرا » بوصفه شاعرا عتيقا ، أصبح فجأة شاعرا مغرقا فى الصفة ، وأنه حمل اللغة الى آخر ما تستطيع ، فثنى المعانى واخترع قوافى وإيقاعات غريبة على الذهن العادى » . وعكف لوركا على دحض هذه الأقوال

بتبيان كيف أن الصور التقليدية التي تجرى على السنة الناس العاديين لم تكن غريبة عن الصور التي ابتدعها « جونجرا » ، مثل تسمية الطرف البارز من أسطح المنازل « فحا منصوبا » ، أو تسمية نوع من الحلوى بشرائح السماء ، أو نهداث الراهبات ، أو تسمية القبة بنصف برتقالة • وقال لوركا في بحثه : « على الشاعر أن يكون استأذا في الحواس الخمس ، وهي كما أرتبها : الإبصار - اللمس - السمع - النشم - الذوق • وعليه ، من أجل أن يصبح سيد أجمل الصور الشعرية ، أن يفتح باب الاتصال بين جميع هذه الحواس ، وعليه في أحيان كثيرة أن يطبع مشاعر حاسة منها على مشاعر حاسة أخرى ، بل وحتى أن يغطي طبائعها ويخفيها • • »

ما أقرب هذا الى ما كتبه الدكتور « احسان عباس » في كتابه « فن الشعر »(*) ، في الفصل الذي عقده للمدرسة الرمزية ، من أن « ادجار الان بو » - رائد الرمزية - « كان يريد أن يتخلص من أغلال الرومانطيقية ويدعو الى خطة مغايرة لها ، فيدعو الى عدم المحدودية في موسيقى الشعر ، الى انطلاق ابحاثهم ، لا بالخلط بين عالم الواقع وعالم الخيال بل بالخلط بين وظائف الحواس نفسها • ونحن نجد « بو » في بعض قصائده « يسمع » قدوم الظلام ، ويقول في قصيدة أخرى : « ومن كل قنديل انساب في اذننى صوت رتيب ناغم لا ينقطع ! • ولذلك كان أول ما يبشر به الرمزيون اجراء الفوضى في مدركات الحواس المختلفة ، ومحاولة الوصول بالشعر الى اللامحدودية التي وصلها فن الموسيقى » •

بعضى لوركا في بحثه الذى ألقاه عن « جونجرا » يقول :

« ان جونجرا فى شعره يتناول الأشكال والموضوعات الكبيرة الحجم بنفس الحب والصدق الذى يتناول بهما صغار الأشياء ، وبفسس العظمة الشعرية ، فالتفاحة عنده تثير فى النفس ذات الكثافة فى الشعور التى يثيرها البحر ، والنحلة مليئة بنفس الدهشة التى

(★) دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٩ •

تمتلىء بها الغابة . وهو يرقب الطبيعة بعين نفاذة ، ويعجب بجمال هوية الأشياء التي تتساوى في جميع أشكالها . ولهذا السبب فإن التفاحة لديه تماثل البحر . فحياة التفاحة ، من لحظة انبثاقها الى الوجود كبرعم صغير حتى سقوطها ناضجة ذهبية من الشجرة الى الأرض ، هي عملية عظيمة ومليئة بالأسرار كعملية ايقاعات البحر اللانهائية . وعلى الشاعر أن يدرك ذلك . فعملة الشعر لا تعتمد على عظمة موضوعه ، ولا على حجمه ولا على مشاعره ، فالشاعر قد يصنع قصيدة ملحمة عن الصراع الذي يقع بين مختلف الخلايا النباتية وسط أغصان الكرمة ، أو يعطى انطبعا لا نهاية له للمطلق عن طريق شكل الوردة وعبيرها لا غير . وهذا ما فعله لوركا نفسه في بعض أعماله مثل التراجيديا الشعرية التي كتبها عن غرام صرصار بفراشة .

وقد صنف الحاضرون طويلا للمبحث الذي ألقاه لوركا في المهرجان ، ودعوه في ليال أخرى الى تلاوة قصائد ديوانه « حكايا الفجر » عليهم ، رغم أن تلك القصائد لم تكن قد صدرت بعد على شكل ديوان ، وإنما كان صيتها قد طار بين أوساط الفنانين والشعراء جميعا .

وقد ترك مهرجان «جونجرا» عام ١٩٢٧ أثرا عميقا في شعر لوركا أبعد وأعمق من أثر الدادائية والسيرريالية ، إذ جعله يقرن بتلك الحركات الطليعية أيامها انغماسا رقيقا في بئر الشعر الاسباني في ماضى العصور . واقترن كل هذا عنده بصورة جديدة من الشكل التركيبي الهندسي للقصيدة ، واستخدامات جديدة أصيلة للمفهل اللغوي ، لا بد أنه استوحاها من البناء العربي والاسلامي الذي فتح عينيه عليه في ربوع غرناطة والأندلس ، مثل قصور الحمراء التليدة ورياض جنة العريف . ويستبين في ثلاث قصائد طويلة للوركا - وهي « أنشودة الى قدس الأقداس » و « أنشودة الى وولت ويتمان » و « القديسة لوسى والقديس عازر » ، الاتجاه ناحية « الجنجورية » الجديدة التي سوف تنمو وتتطور لديه أكثر من ذلك حين يخرج من اسبانيا في رحلته الأمريكية ، وتصوغ نفسها في تركيبة فريدة

يمكن أن يطلق عليها « السيريالية الاسبانية » وهى ذات صلة وثيقة بلوحات دالى التى يمكن أيضا ارجاع أصلها الى فن الشاعر الاسبانى جونجرا . لقد وضع لوركا فى تلك القصائد الثلاث قدمه على أول الدرب الذى سيقوده بعد ذلك الى مرثية مصارع الثيران ثم الى قصائد « شاعر فى نيويورك » . وقد نعى كثير من النقاد تلك النقلة الكبيرة فى فن لوركا ، من مرحلة غنائية فولكلورية دافقة الى مرحلة سيريالية مغرقة فى ابهامها . ولكن لوركا ، كما بنيت الناقدة « ملدرد آدمز » بحق فى كتابها عن الشاعر ، قد أقام ما يكفى فى صرح الغنائية الزاهى الراقد على أرباض قصر الحمراء ، وأنه لم يكن من الممكن الا يتأثر بالجو الفنى والفكرى السائد أيامها . فالوقت آنذاك كان وقت ثورة واضطراب فى كل شيء ، حين كان العالم يقرأ الأرض الخراب لاليوت وعوليس لجيمس جويس وأشعار أندريه بريتون السريالية .

ومضى لوركا بعد مهرجان « جونجرا » فى تنقيح قصائد ديوان حكايا الفجر ووضعها فى صورتها النهائية ، محاولا الجمع فى حكاياه الشعرية بين الصورة الأسطورية للفجر ، وبين الواقع الذى كان يراهم عليه فى غرناطة . وقال فى ذلك : « ان النتيجة غريبة . بيد أننى أعتقد أن بها جمالية جديدة » .

ونشر الديوان أخيرا عام ١٩٢٨ فنال نجاحا فوريا ساحقا ونفذت نسخته فى أشهر قليلة . وهو يتكون من ١٨ قصيدة ، اشتهر معظمها بعد ذلك وتناقلتها الأفواه فى جميع البلاد الناطقة بالاسبانية، مثل قصائد : أخضر ، كم أحبك يا أخضر ، والحرس المدنى ، والزوجة الخائنة ، أنطونيو الكامبوريو .

ويأتى عنوان الديوان «Romancero» من كلمة رومانشة «Romance» وهو شكل أدبى انتشر فى القرون الوسطى ، ويعتمد على صياغة قصائد شعبية ذات حبكة قصصية (ولهذا أثرنا ترجمتها بكلمة « حكايا ») ، مستقاة من موضوعات تاريخية ودينية واليجورية غنائية . وتندرج موضوعات قصائد الديوان تحت اقسام

ثلاثة عامة : قصائد تدور حول القوى الخفية الغامضة ، وقصائد شعبية واقعية ، وقصائد من التراث التاريخي والديني * ومن قصائد النوع الأول قصيدة « الحلوة والهواء » ، التي تنسج صورة رائعة لفتاة غجرية حسناء تنطلق على سجيبتها وتمارس هوايتها في الدق على الدف ، ولكن القوى الخفية المعارضة للغجر لا تتركها على حريتها ، وتتمثل تلك القوى هنا في اله الرياح الغاضب الذي يريد أن يوقع بالفتاة ، ولا ينقذها منه الا لمسة من لمسات العلم الواقعي الذي يمزج الشاعر بينه وبين عالم القوى الخفية الفانتازيات في براعة ساحرة :

تخطر الحلوة

وهي تدق الدف ذا جلد القززال

في درب من الجداول وأشجار الغار *

ويهرب من الموســــيقى

الصمت الذي لا تقطعه النجوم

فيقع حيث يصطخب البحر ويفغى

لياليه التي تزخر بالأسماء

وعلى ذرى الجبل

نيام الخفراء

ويحرسون الأبراج البيضاء

التي يقطن فيها الانجليز

أما غجر المياه

فهم يشيدون تعريشات من الأصداف

ومن أفنان شجر الصنوبر الخضراء

للترويح عن أنفسهم *



تُخَطِرُ الحُلُوة
وهي تدق الدف ذاجلد الغزال
وعند مرآها
هب الريح الذي أبدا لا ينام
سان كريستوفر العارى
مرصعا بالسنة سماوية
يرنو الى الفتاة
تعزف لحنا عذبا مغنيا •



يافتاتى
ارفعى ثوبك كيما ارى جسدك
وانضو باصابعى العتيقة
زهرة الزرقاء ••



وتلقى الحلوة الدف
وتجرى دون توقف
ويتبعها الريح الرجولى
مستقلا سيفه الساخن



ويزوى البحر من حفيف أمواجه
ويشحب لون أشجار الزيتون
وتغنى بآيات الخمائل
وصفحة أجراس الثلوج الصقلية



اجرى يا حلوة اجرى
كى لا يدركك الريح الاخضر !
اجرى يا حلوة اجرى
احذرى من اين ياتيك
« ساطيرا » (*) ذو الأنجم الدنيا
بالسنته الوضاعة .



وغمر الفزع الحلوة
فدخلت نياك البيت
فيما وراء اشجار الصنوبر
الذى يملكه قنصل الانجليز



وجاء ثلاثة من الخفر
وقد افزعتهم الصرخات
يضمون عباةاتهم حوالهم
وقبعاتهم مدلاة على الوجعات



ويقدم الانجليزى للمغربية
كوبا من اللبن الدافىء
وقدحا من الخمر
لم تقربه الحلوة من شفيتها



(*) اله من آلهة الطابات عند الافريق مشهور يحبه للتصف واللهو .

وبينما هى تحكى باكية
قصتها لهؤلاء القوم
يهتاج الريح غيظا
ويعربد على الأسطح الاردوازية

ومن عالم الغجر أيضا يقدم لوركا قصيدة الزوجة الخائنة
ويصور فيها تصرفات غجرى أصيل تجاه حبيبته ومذهب الشهامة
الغجرى الذى حتم عليه الا يعود الى تلك الحبيبة لأنه عرف انها
متزوجة :

اصطحبتها الى النهر
وكنتم أظن انها فتاة
فأتضح أن لها زوجا
كانت ليلة القديس جيمس
وكأنما عن اتفاق سابق
انطفأت مصابيح الشارع
واشتعلت حدقات الجداجد
وعند المنعطفات الأخيرة
لمست نهديها النائمين
فتفتحا لى على الفور
كأنها عيدان السنابل
ورنت فى مسامعى
ثنيات قميصها المنشى الناصع
كأنه قطعة حرير
تحكها عشرات السكاكين
وتطاوالت الأشجار

دوئما أنوار فضية في كنوسها
ونبح أفق من الكلاب
بعيدا بعيدا عن النهر



وفيما وراء شجيرات التوت البري
وخلف الحشائش والأشواك
افترشت لها مكانا على الأرض
تحت خصلات شعرها
وخلعت رباط عنقي
وخلعت هي رداءها •
وطرحت زنارى والمسدس
وخلعت هي صداراتها الأربعة
كانت بشرتها
أرق من الياسمين ومن العبير
ولم تكن لمرايا البللورية
سطوع ظلعتها البهية
وأفلتت ساقاها مني
كالسمكة المذعورة
نصفها يضطرم بالنيران
ونصفها الآخر بالبرودة •
في تلك الليلة
سرت في أفضل الدروب
وامتطيت أحسن الأمهار
دوئما لجام أو سروج

وأنا رجل

ولن أقص عليكم ما أسمعته من كلمات •
لقد غمرني نور من العرفان
فأحالني رجلا وديعا
وحملتها بعيدا عن النهر
وقد غطتها الرمال والقبيلات •
وتصارعت نصال الزنابق
حين أطاح بها الهواء



وتصرفت معها كما يليق
فبصفتي غجري أصيل
أهديتها علبة تطريز كبيرة من الساتان
بلون القش
ولم أدع نفسي تهوى في غرامها
لأن لها زوجا
رغم أنها قالت لي أنها فتاة
حين اصطحبتها إلى النهر •

وتكتمل صورة الغجري الأصيل في قصيدتين عن « أنطونيو
الكامبوريو » ، فيترأى للقارئ فيهما وصف دقيق له ، فهو سليل
اللقاب عريقة في عالم العجر ، صوته قرنفل رجولي ، بشرته معجونة
بزيت الزيتون والياسمين ، واهتماماته هي اهتمامات الغجر •
مشاهدة مصارعات الثيران ، والقتال ، ولكنه في القصيدة الأولى
يخون نفسه وجنسه بالاستسلام دونما قتال أو جهاد لرجال الحرس
المدني ، لذلك فهو يستحق كلمات قاسية يوجهها له الشاعر بأنه ليس

سليلا لأحد والا كان قد فجر نبعاً من الدماء ذا خمس نفثات • ولكن
« أنطونيوس » يعوض ذلك فى القصيدة الثانية ، حين يدافع عن نفسه
ضد أبناء عمومته الذين هاجموه بدافع من حسدهم أياه ، والحسن
صفة دفينه فى الاسبان عموماً وبين الفجر على وجه الخصوص •
وهم يهاجمونه فيصارعهم ، ويتقاذف بخفة الدلافين ، ويلطخ ربطة
عنقه بدماء أعدائه • وهو قد حقق ما يتوجب عليه بالجهاد وأسالة
الدماء ، فلا عيب عليه بعد ذلك أن يقهره آخر الأمر بعد أن يتكالب
عليه الأربعة وهو واحد أمامهم •

أما قصيدة « الحرس المدنى الاسبانى » فهى تصوير كامل
لصراع الفجر مع العالم الخارجى الذى يحيط بهم ويمثل القانون
واللوائح المدنية التى يضطرون الى التسليم بها • ويصور لنا الشاعر
مدينة الفجر مليئة بالمتناقضات والمفارقات عن طريق صور حادة
عجيبة ، كما يقرب من أذهاننا عالم الفجر بكل ما فيه من غرائب
واختلاف ومزج بين العوامل الدينية والشعبية ، وهو من الطباع
التي يتميز بها الفجر • وفى مواجهة مدينة الفجر يقوم القانون ،
الذى تمثله فرقة من الحرس المدنى تهاجمها وتعمل فيها القتل
والنهب :

الجياد سود

وسود حدواتها

وعلى العباءات

تلتمع بقع من الحبر والشمع

جماجمهم من رصاص

لهذا لا يعرفون البكاء

ويخبون فى طريقهم

يأرواحهم الجلدية البراقة

محتيو الظهور ، يتسترون بالليل

وحيثما يحلون

يفرضون صمت المطاط الأسود
ووجل الرمال النواعم
يمرون حين يبعون المرور
ويخفون في رؤوسهم
أفقا غامضة
من مسدسات لا هوية لها



آه يامدينة العجر !
الرايات في جوانب الطرقات
والقمر وثمار القرع
مع الكريز المحفوظ
آه يامدينة العجر !
من يراك وينسأك ،
يامدينة الأسى والمسك
والأبراج التي في لون القرفة



وحين يسدل الليل أستاره
الليل العميق العميق الليلي
يصوغ العجر في ورشهم
شموسا وسهاما
ويقرع جوار جريح على كل الأبواب
وتغنى ديوك من زجاج
في « شريش دي لافرونتيرو »

وتعزى الرياح جوانب الدهشة
فى الليل ، الليل القضى
الليل العميق الغميق الليلي *



اضاعت العذراء صاجاتها
والقديس يوسف
وطلبا من الفجر
ان يبحثوا لهما عنها *
واتشحت العذراء بثياب الحكام
من اوراق الشيكولاته المفضضة
وقلادات من اللوز
ولوح القديس يوسف بذراعيه
من تحت عباءته الحريرية
خلفهما سار « بدرو دوميك »
بصحبة ثلاثة من سلاطين فارس
وكان الهلال يحلم بنشوة اللقالق
وغزت الرايات والقناديل الاسطح المنبسطة
وتوحت الراقصات العجافوات امام المرايا
مياه وظلال ، ظلال ومياه
فى « شريش دى لافرونتيره »



آه يامدينة الغجر !
الرايات فى جوانب الطرقات

أخمدى أنوارك الخضراء

• قرجال الحرس قادمون •

آه يامدينة العجر !

من يراك وينسأك !



ويتقدمون مثنى مثنى من المدينة فى عيدها

واحزمة الذخيرة

تخترق همسات النباتات النواضر

يتقدمون مثنى مثنى

ليل مضاعف من الثياب

ويتصورون اسماء

• فترينة مهمازات المصارعة •

واحكمت المدينة ابوابها

متحررة من الخوف

واقترحهمها أربعون من رجال الحرس

• ليعيثنوا فيها فسادا •

وتوقفت الساعات ،

والبراندى ،

كيما يزيل الشبهات عنه ،

تتكر فى زجاجاته على هيئة نوفمبر

وطارت صرخات حادة

• الخوذات

١١٥١ - ٦

من القصص



وعلى أبواب بيت لحم
اجتمع الغجر
وغطى القديس يوسف جثة فتاة
وقد أثخنه الجراح
وتدق بنادق حادة عنيدة
على طول الليل
وتضمد العذراء جراح الأطفال
برضاب النجوم
ولكن رجال الحرس
يتقدمون ثائرين الدمار
حيث يحترق الخيال العارى المرهف عن آخره •
و « روز » سليلة « كامبريسو »

جالسة تنوح امام بيتها
 وندياها الداميان على صفحة امامها
 وصبايا اخريات يهربن
 وضفائرهن تتطاير فى الهواء
 حيث تتفجر ورود من الديناميت الاسود
 حين كانت كل الاسطح اخايد فى الارض
 وهن الفجر اكتافه
 فى جانبية حجرية طويلة



آه يامدينة الغجر !
 ويبتعد رجال الحرس
 عبر نفق من الصمت
 بينما الجمرات تحيط بالمدينة من كل مكان



آه يامدينة الغجر !
 من يراك وينسـاك !
 فليبحثوا عنك على جبهتى
 مزيجا من القمر ومن الرمال

واشهر قصائد الديوان هى قصيدة « أخضر كم احبك يا أخضر »
 وعنوانها الأصلى « حكاية السائرين نياما » التى أوردناها كامنة
 فى بداية هذا الكتاب . وتدور أحداثها من خلال غيمة من الحلم أو
 من السحر ، فتبدو وكأنها تتراءى من خلال ذهن أحد السائرين فى
 نومهم ، أو شخصية عجزت عن مواجهة الواقع فتراه من خلال عالم

أخضر من الهذيان • ونرى فيها فجري يعمل فى التهريب قد أصابه جرح مميت ، ويختفى من مطاردة رجال الدرك له فيتوجه فى الهزيع الأخير من الليل أو فى مطالع الفجر الى منزل الفتاة الغجرية التى يحبها والتى انتظرته طويلا ، ويسأل والدها العون ولكنه يجد الأب لسبب ما فى حالة صدمة • ويصعد الرجلان الى أدوار المنزل العليا التى يغمرها القمر بضوئه ، وهناك يجد أن الفتاة التى انتظرت حبيبها عبثا ، وهى تطفو على سطح خزان المياه الذى يسبح فى تور القمر ، ونفهم من بين السطور أنها قد انتحرت غرقا • وتعمل دقائق رجال الدرك المغمورين على الأبواب آخر الأمر على زيادة حدة الجور النوى الذى يهيمن على القصيدة • ويفتتن الشاعر بذكريات وخیالات وعواطف الشخصيات التى تضمها القصيدة ، وهم كلهم فى حالة أزمة شديدة •

ويزيد الناقد « ستانلى بيرنشو » على ذلك بأن الشاعر نفسه يزيد من حمى الموقف بانتحاله نفس موقف شخصياتها والتحدث نيابة عنهم . بالأبيات المتكررة التى تتردد فى ثنايا القصيدة فكل الشخصيات منجذبة الى نوع من الاخضرار وكذلك الشاعر أيضا الذى تستبد به فكرة الخضرة دائما على طول القصيدة • وتتحرك الشخصوى تحت سحر ضوء القمر الجميل والندير فى نفس الوقت ، فهم من ذلك المنطلق سسائرون جميعا فى نومهم : المهرب الجريح - الأب الهرم الذى هزه الحزن على ابنته فلم يعد يشعر بنفسه - الفتاة التى انتحرت بعد أن جذت من طول انتظار الأمل الأخضر فألقت بنفسها فى أحضان الموت الأخضر فى خزان المياه - بل وحتى رجال الدرك المغمورين الذين اقتفوا أثر المهرب وجاءوا يدقون على الأبواب •

وقد عمل النجاح الفورى لهذا الديوان على طير صيت لوركا وشهرته فى طول البلاد المتحدثة بالاسبانية وعرضها ، وسرعان ما ترجمت قصائده - التى حركت مشاعر القراء وعواطفهم - الى معظم اللغات الأوروبية ولغات أخرى •

مجلة أدبية وأزمة نفسية

قضى لوركا الوقت الذى انقضى بين نهاية مهرجان أشبيلية الذى تحدثت فيه الخطوط العريضة للجماعة الفنية الجديدة - جيل ٢٧ - وبين أواخر شهر يولية ١٩٢٨ حين صدرت الطبعة الأولى من ديوانه الذى طال انتظاره « حكايا الغجر » ، فى تحقيق حلم أدبى طالما دأب خياله منذ زمن بعيد ، ألا وهو إصدار مجلة أدبية فنية وقد بدأ هو وصحبه فى التفكير فى ذلك منذ أوائل عام ١٩٢٦ ، نتيجة لمناقشاته مع أعضاء أتنيو غرناطة ، ثم مع « سلفادور دالى » فى برشلونة . وكانت الفكرة الأولى عن ذلك ، هو إصدار مثل هذه المجلة كملحق أدبى للصحيفة الغرناطية « الحامى » El Defensor على أن يكون الملحق باسم « الديك » « Gallo » فيكون اسم الكامل « الديك الحامى » « El Gallo Del Defensor » . ثم تطورت الفكرة مع مر الزمن واتساع أبعاد البحث والنظر فيها ، فتقرر أن تكون المجلة مستقلة عن الجريدة المذكورة . كما جاء وقت غلبت على لوركا نزعته الشرقية وميوله الطليعية المغرمة بكل غريب قصى ، فقرر أن يكون اسم المجلة « الديك السلطان » « El Gallo Sultan » ، ولكنه عاد بعد ذلك الى الاسم المجرى المقترح أولا . وكانت فكرة لوركا عن هذه المجلة تتجاوزها الى تكوين حركة أدبية وفنية تكون المجلة نواتها ، فقبل صدور العدد الأول من « الديك » فى ٩ من مارس ١٩٢٨ ، أقيمت مادبة كبرى لمحرريها ، كما جرى التخطيط لإصدار سلسلة من الكتب الطليعية تسمى « مطبوعات الديك » ، وتم تنظيم أمسيات شعرية ونقدية فى « أتنيو غرناطة » تدعو لها الجماعة وتنظم تحت اسم « أمسيات الديك » . وكان مدير المجلة هو شقيق الشاعر ، فرانسيسكو لوركا ، وتضم هيئة التحرير ، عدا شاعرنا : « خواكين أميجو » ،

« فرانسيسكو ايبالا » ، وغيرهما من رفاق الشاعر . وكتب فى العدد الأول من المجلة ، لوركا ، وخورخيه جيين ، وخورسيه بيرجامين ورسم فيه دالى « ومانويل أورتيث » . وقد أثارت الصفة الجديدة الطليعية للمجلة دهشة قرائها ، حتى أن لوركا كتب عن صدور عددها الأول قائلا : « لقد أثارت مجلة « الديك » ضجة حقيقية فى غرناطة . ان غرناطة مدينة أدبية ، ولم يمر بها أبدا شئ « جديد » . ولهذا فقد أثارت المجلة من الضجة مالا يمكن تخيله . وقد نفذ العدد فى يومين ، ويدفعون الآن ضعف ثمنه للحصول عليه . وفى الجامعة ، أثارت أمس معركة بين المؤيدين للمجلة والمعارضين لها ، ولا حديث للناس والمقاهى والاجتماعات والبيوت الا عنها » .

ثم صدر العدد الثانى فى ابريل ، واحتوى على بعض أعمال لوركا الشعرية ، وترجمة الى الاسبانية للبيان « اللافنى » الذى وقعه الفنانون الطليعيون فى برشلونة وسبق نشره بالقطلائية فى مجلة « أصدقاء الفنون » . ورغم أن لوركا قد عمل فى الشهور التالية فى الأعداد لاصدار العدد الثالث من المجلة ، الا أن ذلك العدد لم ير النور أبدا ، وتوقفت المجلة لانشغال هيئة التحرير ، والشاعر نفسه ، فى مشاريع فنية أخرى ، خاصة وأن « سلفادرو دالى » كان يتأهب لشد الرحال نهائيا الى باريس بعد زيارات متقطعة لها . كما لا يغرب عن البال أن من بين أسباب عدم استمرار المجلة انها كانت جريئة أكثر مما تحتمله مدينة محافظة مثل غرناطة .

وكان من أسباب انشغال لوركا عن مواصلة اصدار المجلة ، تلك الأزمة النفسية الغامرة التى طحنته فى تلك الايام ، والتى يتحدث عنها أصدقاؤه ورفاقه دون أن يتفقوا على أسبابها ودوافعها . . . فبالرغم أن عام ١٩٢٨ شهد تحقيق حلم الشاعر فى اصدار مجلته ، كما شهد أيضا النجاح المدوى الذى ناله ديوانه « حكايا الفجر » ، فلم يكن لوركا يبدو سعيدا ، بل كان يميل الى الكآبة والحزن . كتب فى مايو « لخورخيه جيين » يقول : « ليست حالتى الروحية على مايرام . اننى أمر بأزمة عاطفية كبرى آمل أن أخرج منها معافى » . وقال فى خطاب آخر فى سبتمبر للكاتب الكولومبى « خورخيه

ثالايا » : « أنا أيضا فى غاية السوء • ان الأمر يحتاج الى كل ما وهبه لى الله من فرح حتى لا أتهوى أمام كمية الصراعات التى هاجمتنى مؤخرا • بيد أن الله لا يتخلى عنى أبدا • لقد عملت كثيرا ، وما أزال أعمل • فبعد أن أتم « أناشيدى » التى أعمل فيها ، سأغلق تلك الدورة الشعرية كيما أبدأ دورة أخرى • دورة من الشعر الذى « يفجر الشرابين » ، شعر بجانب « الواقع ويجسم انفعالاتى التى ينعكس فيها كل حبى للأشياء • • »

ومع مطلع عام ١٩٢٩ ، يفرق فديريكو أحزانه فى العمل وفى الفن ، ما بين كتابية قصائد جديدة ، والقاء المحاضرات ، وحضور الندوات • ونشرت له « المجلة الأدبية » فى مدريد قصيدة نثرية بعنوان « ذبح الأبرياء » مصورة بريشة « سلفادرو دالى » • وكانت جماعة مسرحية تسمى « الشعبان » تجرى البروفات لآخراج مسرحية « دون تشمبرلين » ، وهى مسرحية قصيرة كتبها لوركا فى تلك الفترة ، ولكن منعت الرقابة عرضها بسبب موضوعها الجرىء على المستوى الأخلاقى السائد أيامها فى اسبانيا حيث تتنازعها القوى المحافظة الممثلة فى الملكية والكنيسة والاقطاع ، والقوى التقدمية التى يمثلها الطليعيون من المفكرين والمثقفين والفنانين •

ولكن • • هل صحيح ما يذكره بعض النقاد عن أن أصل أزمته النفسية هى حب فاشل مع « آن مارى دالى » أخت « سلفادرو دالى » ؟ الواقع أن بعض من كتبوا سيرة حياة لوركا قد أشاروا الى ذلك دون أن يقطعوا فيه برأى ، نظراً الى عدم توفر أدلة ثابتة على ذلك • • ولكن الثابت هو أن جميع هذه العوامل قد تفاعلت فى نفس الشاعر ، فدفعته الى السعى الى الإبتعاد عن اسبانيا بعض الوقت ، للخروج مما سماه « الخدر العاطفى » الذى كان يشعر به آنذاك • وقد هيا له راعيه وصديقه « فرناندو دى لوس ريوس » الأستاذ بجامعة غرناطة الفرصة لذلك حين عرض عليه أن يسافر معه فى رحلة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، بأن حصل له على منحة لدراسة اللغة الانجليزية فى جامعة كولومبيا بنيويورك مدتها عام واحد •

وقد سارع لوركا بنقل قراره السفر فى تلك الرحلة الى صديقه « كارلوس مورا » الدبلوماسى الشيلى فى مدريد فى خطاب قال فيه : « اى كارلوس ، مساء السبت أُنْغَادِرْ غِرْنَاطَة لَأَكُونْ فى مدريد صباح الأحد . وسأبقى هناك يومين أرتب فيها بعض أمورى بها ، ثم أسافر من فورى الى باريس فلندن حيث أبحر منها الى نيويورك . أيدشك هذا ؟ انى أكاد أموت ضحكا من قرارى هذا . ولكنه يناسبنى وهو هام لحياتى . أن نيويورك تبدو لى فظيعة ، ولكنى ذاهب اليها لهذا السبب نفسه . أعتقد أننى سأسر فيها . انى أرحل برفقة صديقى العظيم « فرناندو دى لوس ريوس » ، وهو أستاذ قديم لى وشخصية ساحرة للغاية ، وهذا سيسهل أمورى هناك ، فانا كما تعلم لا حيلة لى فى أمور الدنيا العملية » .

وهكذا رحل الشاعر بصحبة الأستاذ فى أواخر مايو ١٩٢٩ . ولم يبدو أن « باريس » و « لندن » قد تركتا كبير أثر فى نفس لوركا ، أكثر من روعته أمام اللوحات المشهورة فى متحف « اللوفر » وكنوز المتحف البريطانى . وبعد لندن ، قاما بزيارة سريعة الى اكسفورد لزيارة العلامة الاسباني « سلفادور دى مادرياجا » الذى كان مقيما هناك ، ومن اكسفورد ذهبا بالقطار الى ميناء « ساوثامبتون » . حيث أبحرت بهما عابرة المحيطات « أولمبيك » فجرا الى نيويورك .



التجربة الأمريكية

حتى قبل أن ترسو السفينة بلوركا في ميناء نيويورك ، داهمه الحنين الى الوطن ، فنراه يكتب وهو مازال على ظهر السفينة الى صديقه « كارلوس مورلا » يقول : « يجتاحني كل يوم نهم الى بلادي وإلى صالونك .. حنين الى الثثرة معكم وإلى أن أغنى لكم أغنيات إسبانيا العتيقة .. لا أدري لماذا سافرت .. انى أسأل نفسى هذا السؤال مائة مرة فى اليوم .. أتطلع الى صورتى فى مرآة القمرة العتيقة فلا أتعرف على نفسى .. انى أبدو « فديريكو » آخر » .

ووصلت السفينة الى ميناء نيويورك فى أواخر شهر يونيو . ونزل لوركا فى حجرة فى مدينة الطلاب الملحقة بجامعة كولومبيا فى قلب نيويورك النابض ، وفى قاعة تدعى قاعة « جون جاي » . وعكف الشاعر منذ البداية على التعرف على الأوساط الاسبانية فى المدينة الهائلة ، أكثر من اهتمامه بمتابعه دروس اللغة الانجليزية ، التى سرعان ما هجرها بعد اقتناعه بأنه لا يصلح أساسا لتعلم هذه اللغة .. ويقول عنه راعيه الثقافى فى نيويورك - اتخل دل ريو ، أستاذ الأدب الاسباني فى جامعة « كولومبيا » - « لقد رحل عن نيويورك دون أن يتعلم كلمة واحدة بالانجليزية . وكان ينطق الكلمات القليلة التى يضطر أحيانا الى استخدامها ، بالنطق الاسباني ! » .

ولكنه مقابل ذلك كان يشعر بالغبطة حين يجمع حوله طلاب اللغة الاسبانية بالجامعة ويغنى لهم الأغاني الشعبية الاسبانية التى تعلمها منذ طفولته ، أو حين يمضى فى لقاءات طوال مع الأصدقاء الاسبان من الفنانين والكتاب فى نيويورك : اتخل دل ريو ، والرسام

جابريل غرسيه ماروتو ، وداماسو ألونسو الأستاذ الزائر فى « هنتر كوليدج » ، وفديريكو دى أونيس ، والشاعر المشهور ليون قيليبى .

كانت صدمة تعرفه على مدينة نيويورك كالصاعقة التى انقضت على فؤاده فهزته هذا عنيقا ٠٠ هاهو ٠٠ شاعر أندلسى رقيق ، ابن غرناطة الهادئة الجميلة الساحرة ، يهبط فى مدينة مختلفة تماما عن كل ما رآه من قبل ، مدينة حديدية ، هائلة تصطبغ ببشر همهم الأول هو المادة والتفوق المادى ، ويصطدم فيها بالأبنية الحديدية السامقة ، ويسير فى الطرقات فيخيل اليه أن ناطحات السحاب هذه سوف تطبق بقضها وقضيضها على روحه فتزحق وتخدم منه الأنفاس . وقد حدث مرة وكان يسير فى وسط الحشود فى قلب نيويورك أن توقف بغتة وصاح بأعلى صوته : انى لا أفهم شيئا البتة ! » وتبعها بضحكته المجلجلة الشهيرة .

بيد أنه ، وبعد مدة من الصراع مع مدينة ناطحات السحاب والجاز الذى كان يسود المدينة آنذاك — بدأ فديريكو يغوص فى القاع التراجيدى للمدينة ، ويدرك أن وراء المظهر الباهر لنيويورك ثمة كثيرا من الألم والوحدة ينبضان ، وكثيرا من الرعب والخوف فى الانسان . وقد أتيح للشاعر أن يشهد الصراع الذى يستعصى على الحل بين ذروة حضارة آلية ، وبين الغرائز الأولية التى لاتزال فى داخل النفس البشرية ، وثمرة هذا الصراع التى تتمثل أحيانا فى المعاناة والوحدة ، والحزن الوديع لزنوج حى هارلم ، وقسوة المادة فى « وول ستريت » ، حى المال فى نيويورك .

وقد اثمرت التجربة الأمريكية التى مر بها لوركا قصائد عديدة كانت فيض مشاعره وتجاربه فى المدة من يوليو ١٩٢٩ حتى يونية ١٩٣٠ ، ورافقت تنقلاته ورحلاته التى قام بها فى تلك الفترة . وعن الجدير بالذكر أن هذه القصائد لم تنشر فى ديوان الا عام ١٩٤٠ بعد وفاة لوركا ، بعنوان « شاعر فى نيويورك » ، وأن كان معروفا أن الشاعر كان يعتزم إصدارها معا تحت هذا العنوان ، تصحبها صور

ماخوذة عن الحياة فى نيويورك • ويفتتح هذا الديوان بتجسيد فنى
لأول المشاعر التى هزت لوركا فى الولايات المتحدة، الوحدة الطاغية،
اذ أن عنوانا عريضا للجزء الأول من الديوان يحمل اسم : «قصائد
الوحدة فى جامعة كولومبيا » • ثم نطالع فى القسم السادس العنوان
العريض « قصائد الوحدة فى فيرمونت » • وتحمل قصائد الديوان
أسماء معبرة ، مثل : « كنيسة مهجورة » ، « رقصة الموت » ، منظر
الجماهير التى تقىء ، منظر الجماهير التى تبول ، جريمة قتل ،
مدينة لاتنام ، الطفلة الغارقة فى البئر ، فاتحة للموت ، ليلية
الفراغ ، أطلال ، قمر وبانوراما الحشرات ، الفرار من نيويورك •

ويعتبر الكثير من قصائد هذا الديوان تعبيرا ، ومعادلا
موضوعيا ، وخلقاً فنيا حيا للمشاعر المتضاربة التى أثارتها الحياة
والمدن الأمريكية خاصة نيويورك ، فى نفس الشاعر •

وكان يحلو لفديريكو أن يتجول فى شوارع المدينة الهائلة مع
أصدقائه الاسبان ، يجولون فى الأحياء الشعبية وخاصة حى هارلم
- حى الزوج - الذى أوحى له بأحدى أهم قصائد الديوان :

انشودة الى ملك هارلم :

بملقة !

كان يقتلع عيون القماسيح

ويلهب مؤخرة القردة

بملقة •

نيران كل يوم

تقعى غافية على حجر الصوان

والخنفسات السكرى من شراب الأنيس

تتناسى طحالب الضيعات •

هذا العجوز الذى يغطيه الفطر
بتجه الى الموضع الذى ينتحب عنده الزنوج
بينما ارتفعت ملقعة الملك بالصيرير
ووصلت خزانات المياه العفنة •

فرت الأزاهير على طرف منحدرات الهواء الأخيرة
وعلى اكوام الزعفران
سحق الأطفال السناجب الصغيرة
فى خفر من خبل ملطخ •



٢٠١ تعبر الجسور
الى الزنجى الخجول
ر بعبير الرئة يطرق أصداعنا
اناسى الدافىء
تقتل بائع الخمر الأشقر
وحس اصدقاء التفاح والرمال
يجب أن نضرب بقبضات مقفلة
حبات اللوبياء الصغيرة التى ترجف مليئة بالفقاعات
وذلك حتى يغنى ملك هارلم مع جمهوره ،
حتى تنام التماسيح فى صفوف طويلة
تحت معدن القمر الذى لا يحترق
وحتى لا يشك احد فى الجمال المطلق
لنفضات الريش والمباشر ونحاس المطبخ وآلياته •



أواه يا هارلم ! أواه يا هارلم ! أواه يا هارلم !
 ليس هناك من أسى يعادل عيذك المضغوطتين ،
 يعادل دماءك الراجعة من داخل خسوفك المظلم
 يعادل عنقك القانى الأصم الأبكم تحت ظلال الأضواء
 يعادل مليكك العظيم السجين الذى يرتدى ثياب البوابين



وكان الليل يتصدع عن سحالى هادئة من العاج
 والفتيات الأمريكيات
 يحملن أطفالا وتقودا فى بطنهن
 والشباب يغشى على صليب التمدد بعد الاستيقاظ



هؤلاء هم !
 هؤلاء هم من يشربون الويسكى الفضى الى جوار البراكين
 ويبتلعون شذرات القلوب على جبال الدببة المنلوجة
 تلك الليلة
 كان ملك هارلم يقتلع عيون التماسيح
 بملعقة جامدة صلبة
 ويلهب مؤخرة القردة
 بملعقة
 وبكى الزوج حيارى وسط مظلات وشموس ذهبية
 وشد الخالسيون مطاطا
 يجتاحهم الشوق الى بلوغ الجسد الأبيض

والرياح قد طمست المرايا
وحطمت عروق الراقصين



زنوج ، زنوج ، زنوج زنوج
ليس للدماء من منافذ في ليك المدلهم
وليس هناك من خفر
ويهدر الدم غاضبا من تحت الجلد
ويعيش في شوكة الخنجر وفي صدر مناقير الطليعة
تحت الكماشات وتباتات « الوزال »
لقمر السرطان السماوى *



الدم الذى يبحث فى آلاف الدروب
عن الموت المغطى بالدقيق
وعن رماد الياسمين *
سماوات تبيسة مائلة
حيث تنحدر مجاميع الكواكب على الشيطان
مع النفائات المهملة



الدم الذى يتطلع فى بطء بذيل عيوته
مصوغا من حشائش الحلفاء المعتصرة
ورحيق الأنفاق

الدم الذى يغطى الرياح الغافلة بالصدا
ويحيلها الى مجرد اثر
ويذيب الفراشات على زجاج النوافذ



انه الدم الذى ياتى
الدم الذى سيأتى
من قدم المسقوف والأسطح
من كل الجوانب
ليحرق بلهيبه كلورفيل النسوة الشقراوات
ويثن تصت أرجل الفراش
وجها لوجه مع ارق الأحواض
ثم ينصدع فجرا من التبغ وظلا من الصفرة



لا مفر من الهرب
الهرب من حول الأركان
والانغلاق فى الأدوار العليا
لأن لباب الغابة سيخترق الشقوق
ليترك على جسدهك آثار خسوف واهية
واسى زائفا
للقفاز الماحل والوردة الكيميائية



وفى فترة الصمت الحكيم
يبحث الجرسونات والطباخون
ومن يلحقون بلسانهم جراح المليونيرات
عن الملك فى الطرقات
أو فى زوايا الملح



ريح جنوبية خشابية
مائلة فوق الحمأة الزنجية
تبصق على القوارب المحطومة
وتدفع المسامير فى اكتافها
ريح جنوبية
تحمل أنيابا وعباد شمس وحروف الأبجدية
وبطارية قولتية
فيها زنابير غارقة



وكشف النسيان عن نفسه
بثلاث نقاط من الحبر على المونوكل
وكشف الحب عن نفسه
بوجه متفرد خفى على صفحة الحجر
واجتمع اللبلاب والتوار على السحاب
فى صورة صحراء من الجذوع
خالية من أى ورود •



ذات اليمين وذات اليسار ،
فى الجنوب وفى الشمال ،
يرتفع جدار لا تنفذ منه الشامة ولا ابرة الماء
لا تدحتوا ايها الزنوج
عن شق تجدون وراءه القناع المطلق
بل ابحثوا عن شمس المركز العظمى ،
وقد تحولتم الى اناناسة تطن وتئنز ،
الشمس التى تنساب خلال الغابات .
على يقين بانها لن تجد اى حوريات
الشمس التى تدمر ارقاما
ولم تخرق ابدا حلما
الشمس ذات الوشم تنساب عبر النهر
وتخور فى طريقها
تتبعها التماسيح الامريكية



زنوج، زنوج ، زنوج ، زنوج
لا الثعبان ولا حمار الوحشى ولا البغل
يشحب لونه عند الموت
ولا الحطاب يدرى متى تموت الاشجار المصطخبة التى يقطعها
حتى يهاجم الشوكران والعوسج والقريض
الاسطح الخلفية



حينئذ ايها الزنوج
حينئذ

بامكانكم أن تقبلوا عجالات الدراجة فى جنون
وتضعوا أزواجاً من الميكروسكوبات فى كهوف السناجب
وترقصوا أخيراً فى ثقة
بينما أزهار الشوك
تقتل «موسانا» على مقربة من احراش السماء •



أه ياهارلم المتنكرة !
أه ياهارلم التى تهددها جمهرة بذلات دونما رؤوس !
همهماتك تصلنى
همهماتك تصلنى عبر جذوع الأشجار والمصاعة الكهربية
عبر دمعات رمادية
حيث تطفو سيارتك المغطاة بالأسنان
عبر جبالدمية وجرائم متممة
عبر مليكك العظيم اليانس
الذى تتطاول لحيته حتى البحر •

وكان من بين من تردد عليهم الشاعر ، صديقه « هرشل
بريكل » ، فى منزله فى « بارك أفنيو » مع شارع رقم ٥٦ ، حيث
كانت تجتمع هناك ثلة من الفنانين والأدباء • وبعد إحدى السهرات
هناك ، توجه الحاضرون لزيارة كنيسة « سان بابلو » ، التى قال
عنها لوربكا فيما بعد أنها « أجمل كنيسة فى العالم » ، وتفرق
موسيقاها أى موسيقى أخرى سمعها فى إسبانيا ، وحيث بدت له
الكنيسة جزيرة من الجمال المعمارى والفنى المصفى وسط طوفان
من البرودة والبشاعة والآلية التى تفرق فيها نيويورك • نيويورك •
نيويورك التى ألهمته هذه القصيدة المشهورة عن « الفجر فى
نيويورك » :

الفجر فى نيويورك
تظلمه أربعة أعمدة من الوحل
وعاصفة من الحمام السود
• يخضن فى المياه العفنة •
الفجر فى نيويورك
ينتحب على طول السلالم الهائلة
ويتشد ياسمين الأسى
المرتسم وسط شعيرات السنبال •



ياقى الفجر
ولا أحد يستقبله فى الأفواه
فليس ثمة صياح ولا أمل باسم
وأحيانا
تخترق العملات الأطفال المهجورين
وتلتهمهم
• فى أسراب شائرة •



يعرف أوائل من يخرجون عن ثقة
انه لن يكون ثمة فردوس ولا حب خالص
يعرفون أنهم يتجهون الى وحل الأرقام واللوائح
الى الألعاب التى لا تعرف فنا
الى العرق الخالى من الثمار •



ويثدقن النور فى السلاسل والضوضاء
فى التحدى المشين لعلم بلا جذور
ويتطوح الناس المؤرقون فى كل حى
كانهم خرجوا لقروهم من حطام الدماء •

ويطلق الشاعر أيضا قصيدته « صرخة كى روما » من فوق
مبنى « كرايزلر » الذى كان أيامها أعلى مبنى فى العالم قبل سنوات
من اتمام مبنى الامباير ستيت فى نيويورك أيضا ، وهى قصيدة
اتهامية ضد حضارة رأس المال الميتة ، ومنها :

يجب على الزوج الذين يرتعون المباحق
الفقية الذين يرتجفون من هول المديرين الشاحب
النسوة القارقات فى الزيوت المعدنية
جمهور المطارق والقبولين والسحب
يجب أن يصرخوا

حتى ولو فجروا أدمغتهم على الجدران
يجب أن يصرخوا أمام القباب
يجب أن يصرخوا فى جنون من النيران
يجب أن يصرخوا فى جنون من الثلوج
يجب أن يصرخوا ورؤوسهم مغطاة بالروث
يجب أن يصرخوا كأنما هم الليالى مجتمعة
يجب أن يصرخوا بصوت محطوم

الى أن ترجف المدائن كالأطفال
وتحطم سجون الزيت والموسيقى
لأننا نريد خبزنا كفاف يومنا
زهرة الحور والحنان الأبدى المنتثر
لأننا نريد أن تنفذ ارادة الأرض
التي تهب ثمارها للجميع •

لقد تجسدت مدينة نيويورك في نفس الشاعر كرمز للزيف الذى تخلقه الحضارة القائمة على المادة ، مقابل الصدق الذى تبثه الطبيعة التى يحلم بها الشاعر والتى وجدها وعاشها فى وسط الفلاحين والفجر وكل ماهو طبيعى وتلقائى وفطرى فى النفس البشرية . ولم يكن أمام لوركا فى تصويره الهجوم العاتى لتلك الحضارة المادية واقتنائها على الطبيعة الا اللجوء الى أشكال من التعبير السيريالى ، فوق الواقعى ، والى أن يخضع أفكاره وصوره لعالم جديد غريب من الرموز والصور السيريالية . ومعظم قصائد الديوان تبين جور الكبريت المطفأة تلتهم سنبلات قمر الربيع - آلام المطابخ المذمونة تحت الرمال - يعض الحقل ذيله كيما يجمع الجذور فى نقطة واحدة - ستأتى السحالى لتعض الرجال الذين لا يحملون - حيث الفيلسوف يلاتهمه الصينيون واليسروعات - نئاب وضفادع برية تغنى فى المواقد الخضراء - خرج السرطان فى منتصف الليل الى الممرات وتحدث مع القواقع الخاوية عن السجلات . الخ .

وتخللت السنة التى امضاها لوركا بعيدا عن بلاده زيارات لمناطق أمريكية غير نيويورك ، ففي شهر أغسطس سافر الى « ادين ميللز » بولاية « فرمونت » تلبية لدعوة من صديقه « كمنجز » الذى كان قد عرفه فى مدينة الطلاب بمديرد من قبل ومن هناك كتب يقول :

« ان الطبيعة هنا رائعة . بيد أنها تبث فى النفس كتابة لا حد لها وانها لتجربة طيبة لى . السماء تمطر باستمرار . ان الأسرة التى أقدم بين ظهرانيتها لطيفة جدا ورائعة ، بيد أن الغابات والبحيرة تغرقانى فى حالة من اليأس الشعري لا يمكن احتمالها . انى أكتب طول النهار ، وأشعر بنفسى مجهدا عند المساء . لقد انسدل الليل ، وأوقدت مصابيح الغاز ، وعادت كل طفولتى الى ذاكرتى ملفوفة فى مجد من شقائق النعمان وسنابل وقمح » . وهناك ، كتب « قصائد الوحدة فى فيرمونت » .

وفى نهاية أغسطس « سافر للقاء أنخل دل ريو » فى مزرعة فى جبال كاتسكيل كان الأستاذ يمضى فيها أجازته مع عائلته . ويحكى الأستاذ قصة وصول لوركا الى المزرعة على النحو التالى :

« فى اليوم المحدد لوصوله ، لم تتسلم أى برقية أو اخطار بالموعد كما سبق أن اتفقت معه . » وعند حلول المساء بدأ التسوق يعترينا من أن يكون قد ضل طريقه أو تعرض لحادث ، حين أبصرنا أخيراً عربية أجرة تتهاذى متثاقلة فى الطريق المترب مثيرة الغبار من حولها . وكان ثمة تعبير استسلام على وجه السائق ، أما لوركا فما أن رأى حتى أحتاج وأخذ يصرخ ويصيح . وكان ما حدث هو أن لوركا قرر عند وصوله الى البلدة أن يستقل تاكسيا دون أن يعرف كيف يشرح العنوان للسائق . وأخذ التاكسى يروح ويجىء فى الطريق المغبرة وسط الجبال ، التى أن أعطى أحد المارة العنوان الصحيح للسائق . وكان العداد قد سجل ١٥ دولارا ، بينما لوركا قد أنفق كل ما يحمل من نقود ، مما علا قلبه بالفزع بالآ ينجح فى الوصول الى مقصده ويفاجأ السائق بأفلاسه . وفى الحال ، خلع لوركا مظهره خياليا مروعا على الحادث ، وزعم أن السائق - الذى لم يستطع التفاهم معه - قد حاول سرقة وقتله فى جانب مهجور من الغابة !

وأضى الشاعر أسبوعين فى هذه المزرعة الجبلية ، كتب فيها من قصائد الديوان : ليلة الفراغ ، أطلال ، طفلة غارقة فى النير ، منظر لقبرين وكلب آشورى . ثم قضى الشاعر بقية أجازته الصيفية فى منزل الأستاذ « فديريكو دى أونيس » بالقرب من « نيوبرج » ، ثم عاد بعدها الى حجرته فى المدينة الجامعية بنيويورك ، وكتب عندها يقول لصديقه كارلوس مورلا : « . . لقد عاد فديريكو القديم الى الظهور . . »

وهكذا فعلت الرحلة الأمريكية فى نفس الشاعر فعل السحر ، فعل التجديد ، فعل التطهير ، بكل ما تحمله من حسرات ومفاجآت ووحدة وعزلة والم . لقد أمسك الشاعر حقاً بنيويورك من داخلها ومن خارجها ، عن طريق دفعة جامحة من الصور الدرامية : وحدة مأساوية وانفجار للحياة فى حركات وصور مزعجة متفرقة ، كأنها شريط لفيلم سيرىالى . أن قصائده تبين لنا كيف كانت نفس الشاعر تغرق فى مدينة نيويورك ، بل وقد وصل الحال بلوركا أن خشى أن تبتلعه المدينة الهائلة فى جوفها وكان على وشك الهروب منها والعودة

الى غرناطة بلدته الوديعة الهادئة كالنهر الناعس ، مالم تصله في ذلك الحين دعوة من معهد الثقافة الاسباني - الكوبي للقاء محاضرات في عدة مدن من جزيرة كوبا . ووافق فديريكو على الفور ، وأبحر في ربيع ١٩٣٠ الى هافانا العاصمة التي أحبها من أول نظرة ، والتقى فيها بجذوره الاسبانية الراسخة التي كانت قد شارفت على الاختفاء في نيويورك . ولم يقتصر الأمر هناك على العودة الى سماع اللغة الاسبانية ، بل والعودة الى الأجواء الدافئة والبشرة السمراء الذي تذكره باهل الأندلس ، وليس هناك أقرب الى العنصر الأندلسي من العنصر « الكريولى » - وهم اهل أمريكا الجنوبية المخلطين . وكان لوركا يقول هناك : « اننى اشعر وكأننى فى مدينة قادش » . وتبادل الشاعر الحب والاهتمام مع شعراء كوبا وفنانينها ، وكان مع لقائه المحاضرات والأشعار ، يتشرب عذوبة استوائية كوبا : موسيقاها ، شمسها ، بهجتها ، وهام بصفة خاصة بالألحان « الأفروكوبية » التي يتميز بها السود هناك .

وخلال اقامته فى كوبا ، واصل كتابة بعض المناظر فى عمليتين مسرحيتين : « الجمهور » ، و « عندما تمر خمس سنوات » ، كما نشر فى مجلة « الموسيقى » بهافانا ، قصيدته التي استوحاها من الموسيقى الأفريقية - الكوبية ، والتي ضمنت ديوانه شاعر فى نيويورك ، وهى بعنوان « موسيقى الزنوج » فى كوبا :

حين يطلع البدر

سأذهب الى سنتياجو دى كوبا .

سأذهب الى سنتياجو .

فى عربة من المياه السوداء

سأذهب الى سنتياجو .

وسوف تغنى سقوف النخيل

سأذهب الى سنتياجو .

حين تشتاق النخلة أن تصبح لقاها

سأذهب الى سنتياجو
وحين تشتاق شجرة الموز أن تصبح صدفة
سأذهب الى سنتياجو
مع رأس « فونسكا » الشقراء
سأذهب الى سنتياجو
ومع وردية روميو وجولييت
سأذهب الى سنتياجو
بحر من الورق وقضة من العملات النقدية
سأذهب الى سنتياجو
آه ياكوبا ، آه يالحين جاف البذور !
سأذهب الى سنتياجو
آه ايها الزنار الجار وياقطرة الأحشاب !
سأذهب الى سنتياجو
يامعزف الجذوع الحية ، ايها التمساح ، يازهرة التبغ !
سأذهب الى سنتياجو
لقد قلت دوما اننى سأذهب الى سنتياجو
فى عربة من المياه السوداء
سأذهب الى سنتياجو
النسمة والكحول يصاحبان عجالتى
سأذهب الى سنتياجو
ومرجاناتى وسط القمام
سأذهب الى سنتياجو
البحر الغارق فى الرمال
سأذهب الى سنتياجو
حرارة بيضاء ، وفاكهة مينة

سأذهب الى سنتياجو

آه ياكوب ، آه يامنحدر النهضة والطين !

سأذهب الى سنتياجو

ثم شارفت أقامته في كوبا على نهايتها ، واستقل في أواخر صيف ١٩٣٠ الباخرة الاسبانية ماركيز دي كومياس ، عائدا الى اسبانيا ، بعد أن توقفت في الطريق في ميناء نيويورك حيث كان وداع الشاعر لأصدقائه هناك .

وهكذا فارق شاعرنا الأرض الأمريكية ، أرض العالم الجديد ، التي مثلت له تجربة كثيفة في روحه وفي فنه ، ولكن المهم أيضا هو أنها قد أزلت عنه ذلك « الخدر العاطفي » ، ذلك الحزن والكآبة العميقين اللذين هاجماه طوال صيف وشتاء ١٩٢٨ . وقد عاد فديريكو من رحلته سعيدا بها وأكثر ثقة في نفسه وفي عمله ، مليئا بزخم جديد دفاق للعمل والحياة .



لأباراكا وفترة النضج المسرحي

وكمادة لوركا كل صيف ، قضى الصيف التالي لرحلته الأمريكية في بلدته غرناطة ، يجتر تجاربه ، ويقضى أيامه وليلاته بين أهله وأصدقائه من الفنانين والشعراء . ثم عاد مع بداية الشتاء في أواخر ١٩٣٠ إلى مدريد لحضور عرض مسرحيته الجديدة « الاسكافية العجيبة » على مسرح « اسبانيول » تؤديها فرقة « كراكول » وتمثل فيها الممثلة المشهورة « مرجريتا شيرجو » دور البطولة .

وهذه المسرحية - التي ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي إلى العربية ونشرت عام ١٩٦٤ - تمثل حلقة في سلسلة مسرحياته الشعبية الفولكلورية ، وقد تصورهما مؤلفها بوصفها « باليه » لا ينقصه إلا الموسيقى . وقصتها تحكى عن صبية جميلة في الثامنة عشر تتزوج اسكافيا هرما عمره ثلاثة وخمسون عاما ، في إحدى القرى الأندلسية . وتمتلىء حياة الزوجين بالشجار والنقار ، ولم ينجبا أطفالا . ويضحك منهما أهل القرية وينشدون الأغاني في التهكم عليهما . وكانت الاسكافية تقضى نهارها تحلم بأراض قصية وحياة مختلفة عن التي تحياها ، وتهمل شئون بيتها . ويفيض الكيل بالزوج الهرم فيهرب من المنزل ومع غياب الزوج ، تتغير صورته في عيني زوجته الحسنة ، فيبدو لها أنه كان أفضل زوج في الدنيا ، وتطرد عنها الشبان الذين يخطبون ودها ، مفضلة أن تنتظر زوجها التي أصبحت تحب صورته وذكره . ويعود الزوج متخفيا إلى القرية ويعلم مدى ثبات زوجته على حبه ، فيكشف شخصيته آملا

أن يميش فى هءاء بعد ذلك مع الزوجة ، بيد أنها وقد عاد الزوج ،
تعود الى حياة الشجار والنقار مع الاسكافى *

وهذه المسرحية خفيفة الروح والجو ، وتزخر بالآغانى الشعبية
الأندلسية ، مما جعلها تنجح على المسرح ويقبلها الجمهور الاسباني
والأجنبى على حد سواء *

ورغم أن عام ١٩٣١ قد شهد أيضا صدور ديوان « قصيدة
الغناء العميق » الذى يضم القصائد التى كان لوركا قد كتبها فى
عام ١٩٢١ ثم نسيها فى أحد أدراج مكتبه بعد ذلك ، الا أن عرض
المسرحية وصدر هذا الديوان - رغم نجاحها - قد غرقا فى الأحداث
العظيمة التى شهدتها أسبانيا فى ذلك الربيع الملهب ، ربيع عام
١٩٣١ وما تلاه . ذلك أنه بعد الحكم الدكتاتورى للبلاد على يد
الجنرال « بريمو دى ريفيرا » - فى ظل الملكية والملك - والذى
استمر من عام ١٩٢١ حتى بداية عام ١٩٣٠ ، لم يجد الملك بدا من
تعيين حكومة تجرى انتخابات بلدية عامة ، أجريت بالفعل فى ١٢
ابريل ١٩٣١ . وفوجئ الملك والحكومة بنجاح معظم المرشحين
المناهضين للملكية والداعين لقيام حكم جمهورى . وحين لم يبادر
الجيش ولا الحرس المدنى الى اعلان ولائهما للملكية ، وجد الملك
- ألفونسو الثالث عشر - أنه ليس أمامه الا أن يرحل الى المنفى ،
حيث استقر هو وأسرته فى إيطاليا . وفى نفس يوم رحيل الملك
- ١٤ ابريل ١٩٣١ - أعلنت الجمهورية فى اسبانيا . وبدأت الحياة
الديمقراطية بأجراء انتخابات عامة فى يونية ١٩٣١ فاز فيها
الجمهوريون والاشتراكيون والتقدميون باغلبية ساحقة على الملكيين،
وتشكلت على أثرها حكومة اشتراكية النزعة برئاسة «الكالا زامورا»
* وقد دخل أستاذ لوركا وصديقه « فرناندو دى لوس ريوس »
الحكومة الجديدة وزيرا للمعارف العمومية . وقد أعقبت تلك
الأحداث صراعات خفية وعلنية بين مختلف طوائف الشعب الاسباني،
ظلت تعمق وتستفحل الى أن انتهت باندلاع حرب أهلية دامية كما
سنرى بعد ذلك *

ولاشك أن تلك الأحداث التي بدأت تترى في اسبانيا في ربيع عام ١٩٣١ قد أثرت أعظم تأثير في نفسية لوركا ، وألهبته حماسا لتقديم اسهاماته لخدمة ذلك القطاع من الشعب الذي يكن له أعظم حب ومودة : الفقراء والفلاحين والغجر . ولقد صارت عبارة صرح بها الشاعر لأحد الصحفيين بعد ذلك في أواخر عام ١٩٣٤ علما على تفكيره وإنسانيته ، إذ قال : « في هذا العالم ، أنا دائما ، وسأكون دائما ، في صف الفقراء . سأكون دائما في صف من لا يعلكون شيئا بل هم محرومون حتى من طمانينة العدم » .

وقد دفعه هذا الاحساس الانساني والاجتماعي الى التفكير بعد قليل من قيام الجمهورية في مشروع ثقافي وهبه الكثير من فكره وجهده ووقته : إنشاء مسرح جامعي متنقل من الهواء ، يطوف قرى اسبانيا ونجوعها في كل الأنحاء لتقديم الأعمال المسرحية الاسبانية العظيمة ، من « مشهيات » « سرفانتس » صاحب « دون كيشوت » الى درامات « لوبي دي فيجا » و « كالديرون دي لاباركا » . وخلق لوركا على مسرحه اسم « لا باراكا » ، أي « الكوخ » بالاسبانية . ونالت الفكرة استحسان الوزير الجديد « فرناندو دي لوس ريوس » - الذي أمد المشروع بالاعتمادات المالية الضرورية - كما تحمس لها أيضا مجموعة من الشباب من طلبة الجامعة ، معظمهم من كلية الآداب ، من هواة المسرح والتمثيل . وتطوع عديد من أصدقاء لوركا من الفنانين والرسامين للمساهمة بجهودهم في تصميم الديكورات والعرائس للمسرحيات المختلفة . وأولى لوركا عنايته لكن صغيرة وكبيرة في التحضير لتنفيذ المشروع الفني الكبير ، من الاجراءات الادارية بكل أنواعها الى التفاصيل الفنية بوصفه مخرج المسرح فكان يدير حركة الممثلين وطريقة أدائهم ونطقهم ، والاضاءة ، والملابس ، والديكورات .

وبدأت البروفات في منتصف عام ١٩٣٢ ، لتقود الى حفلة الافتتاح التي أقيمت في ميدان « برغو دي أوسما » في مقاطعة « صوريا » بتقديم عمليتين من « مشهيات » سرفانتس هما : « الحارسة الحريصة » و « كهف شلمنقة » .

وتنقل مسرح « لاباركا » فى عديد من المدن والقرى الاسبانية حيث كان يلقي حفاوة بالغة وتشجيعا عظيما . كان معظم جمهور النظارة من الناس الذين أحبهم لوركا دائما : الناس البسطاء ، العمال والفلاحون الذين يجدون فى ذلك المسرح الشعبى فرصة يلتقون فيها مع أدب بلادهم وفننها العريق . وكانت المسرحيات التى تقدم كلها من التراث الاسبانى فى عصره الذهبى ، ولكنها رصعت بعمل واحد حديث هو « تاريخ جندى » للمؤلف « راموز » ، الذى وضع موسيقاه الموسيقار الفرنسى الشهير « سترافنسكى » ويحكى « بابلو نيرودا » عن مدى اهتمام لوركا بخدمة مسرحه ، أنه عندما كان لوركا يشرف على اعداد الملابس والديكور لمسرحية «بيريبانيث» للوبى دى فيجا ، جاب كل بقاع مقاطعة « اكستريمادورا » وقراها ، الى أن عثر على ملابس حقيقية ترجع الى القرن السابع عشر ، كانت تحتفظ بها أسرات ريفية عريقة كآثر من آثار الأجداد وتوارثتها جيلا عن جيل ، وقد رضت باعارتها للوركا لاستخدامها فى مسرحه ، لأن خفته ولطفه ، كانا كفيلين بفتح جميع الأبواب أمامه .

ومع كل الوقت والجهد الذى بذلها الشاعر فى خلق مسرحه والسير به قدما الى الأمام ، فان ذلك لم يشغله عن النشاط الأدبى والفنى الخاص به ، وعن متابعة زيارة أصدقائه والتردد على جلسات أهل الأدب والفن ، وكذلك عن اللقاء المحاضرات الأدبية فى محافل عدة قامت بانشائها الجمهورية الوليدة . وقد حملته واحدة من تلك المحاضرات الى اقليم « غاليسيا » الناضر المزهر الخضرة على الدوام فى شمالى غربى اسبانيا . وكانت حصيلة تلك الزيارة ست قصائد غاليسيه وضعها الشاعر رغم أنه كان يجهل هذه اللهجة المختلفة عن الاسبانية ، ولكن ايقاعاتها وموسيقيتها حملاء على أن يعبر عن نفسه بها . وقد طاف فى زيارته « الغاليسية » بالمدينتين الرئيسيتين هناك : « كورونيا » ، و « سبتياجو دى كومبوستيلا » . وفى الأخيرة ، زار قبر الشاعرة الاسبانية المشهورة « روساليا دى كاسترو » التى كان يفرغ بشعرها ، ووضع باقة من الزهور هناك .

وكان لوركا فى ذلك الوقت يكمل رائعته المسرحية : « عرس

الدم » ، وهى حلقة مستقلة من ثلاثية مسرحية اكتملت فيما بعد بمسرحيتى « يرما » و « بيت برناردا ألبا » . وقد أفقتحت مسرحية « عرس الدم » فى ٨ من مارس ١٩٣٣ على مسرح « بياتريز » بمدريد ، بحضور نجوم الفن والأدب والفكر الاسبانى ، ومنهم خاسنتو بنافنتى ، وميجيل دى أونامونو ، وأورتيجا اى جاسيت ، علاوة على أعضاء « جماعة ٢٧ الأدبية بكاملهم » . ولأقت المسرحية نجاحا فوريا ساحقا ، ولا غرو فهى قد تكامل فيها الفن المسرحى ، والشعر الغنائى الذى يقوم بدوره فى بناء درامى متكامل وشخصيات ورموز مسبوكة . ويدور موضوع المسرحية - التى ترجمت الى العربية ثلاث مرات - حول الصراع على فتاة يحبها شابان ينتميان الى عائلتين متعادييتين . وتقبل الفتاة احدهما زوجا نكاية فى الآخر الذى تحبه لأنه تزوج بفتاة أخرى . وفى ليلة عرس الفتاة ، تهرب مع حبيبها المتزوج ليوناردو . ويطارد العريس وأهله العاشقين فى دروب احدى الغابات الى أن يعثروا عليهما ، فتدور معركة تنتهى بمقتل الشابين المتنافسين ، ولم يبق الا النسوة يذرفن الدموع على مصيرهن .

جو المسرحية أندلسى صرف ، يزخر بالعواطف المشبوبة والمنازعات والصراعات العنيفة ، كما أنها تمتلىء بالأغاني الشعبية التى تدور حول الحب والزواج والأطفال . وقد لقيت هذه المسرحية نجاحا هائلا لما صورته من جوانب الحياة الأسبانية الأصيلة ، وقابلها النقاد المسرحيين بحرارة شديدة .

وفى ربيع نفس العام - ١٩٣٣ - بتعاون الشاعر مع صديقه « بورا أوسيلاي » فى انشاء « نوادى الثقافة المسرحية » ، بهدف اقامة مسرح اسبانى يقف أمام الموجة التى انتشرت فى اسبانيا من المسرحيات المتنبذة التى تعتمد على تقديم الأغاني والاستعراضات دون أى هدف فنى . وكانت الفكرة تقوم على انشاء مثل تلك النوادى فى كبريات المدن الاسبانية . وبدأ نادى مدريد عمله بتقديم عمالين من أعمال لوركا هما « الاسكافية العجيبة » و « غرام دون برلبلين

وبليزا فى حديقته « التى كان قد كتبها فى عام ١٩٢٨ • ومثلت فى العاملين « مرجريتا شيرجو » وقدمتا على مسرح « اسبانيول » فى ٥ ابريل • ورغم نجاح تقديم هاتين المسرحيتين عند عرضهما فى مدريد الا أن النجاح الهائل الذى كانت تلاقيه مسرحية « عرس الدم » طغى عليهما •

وبما ان يحل صيف ١٩٣٣ ، حتى يكون لوركا غارقا حتى اذنيه فى ثلاثة أعمال مسرحية جديدة : « الجمهور » ، الذى يقول انها لن تمثل لأنها « غير قابلة للتمثيل على المسرح أبدا » و « عندما تمر خمس سنوات » وهى مسرحية تدور حول فكرة الزمن ، و « يرها » وهى الحلقة الثانية فى الثلاثية الدرامية الأندلسية • ويرجع الى تلك الفترة تعرفه وصادقته ، فى إحدى رحلاته مع مسرح « لاباركا » فى شمال اسبانيا ، « بمارسيل أو أوكلير » الكاتبة الفرنسية التى ترجمت « عرس الدم » الى الفرنسية ، ثم كتبت بعد ذلك إحدى أدق وأكمل سيرة فنية لحياة الشاعر بعنوان « حياة لوركا وموته » •

وفى أغسطس ، يخلق « لاباركا » أبوابه ونشاطه فى أجازة صيفية ثم يقبل لوركا فى سبتمبر دعوة من جمعية أصدقاء الفن فى « الأرجنتين » لزيارتها والقاء عدة محاضرات هناك ، ولحضور عروض « عرس الدم » التى تقدمها فرقة الممثلة الأرجنتينية المشهورة « لولا ممبريفس » • ويصل لوركا الى ميناء « بوينس آيرس » فى ١٣ أكتوبر ١٩٣٣ ، ويقضى فى العاصمة الأرجنتينية أياما مليئة بالنشاطات الأدبية والفنية ، من محاضرات الى أحاديث إذاعية وعروض مسرحية وحفلات تكريم • وتعرض على مسرح « أفنيديا » ببوينس آيرس مسرحيات لوركا « عرس الدم » و « الاسكافية العجيبة » و « ماريانا بينيدا » ، ويشترك هو نفسه فى القاء مقدمة « الاسكافية العجيبة » • وفى أواخر يناير ١٩٣٤ ، يسافر الشاعر الى « منتفديو » عاصمة الأوروغواى المجاورة للأرجنتين ، حيث يلقي عدة محاضرات هناك ، ويستقبله سفير اسبانيا فى الأوروغواى •

وبعد عودة لوركا الى الارجننتين ، ينظم نادى القلم الدولى مهرجانا فى ذكرى شاعر « نيكاراجوا » « روبين داريو » ، رائد الشعر الاسبانى الحديث الذى ترك بصمات واضحة فى شعراء جماعى ٩٨ و ٢٧ . ويشترك فى المهرجان لوركا والشاعر اشيلى العظيم « بابلو نيرودا » ، حيث يلتقيان معا محاضرة ثنائية عن « داريو » . وكانت هذه أول مرة يلتقى فيها الشاعران الكبيران لوركا ونيرودا ، حيث ربطت بينهما صداقة حميمة استمرت حتى موت لوركا فى عام ١٩٣٦ وكتابة نيرودا مرثية شهيرة عنه . وقد ترسخت تلك الصداقة حين انتقل « نيرودا » بعد ذلك فى يوليو ١٩٣٤ قنصلا لبلاده فى مدريد ، وأصبحت الندوات والتجمعات الأدبية قلما تخلو من هذين البلبلين المغردين : لوركا الذى يتلو أشعاره الشعبية ويغنى أغاني الفولكلور والفلامنكو على البيانو ، ونيرودا يقرأ بعض قصائده الجديدة التى لم تنشر بعد . وكان أكثر شىء لاحظته أصدقاء لوركا عليه عند عودته من أمريكا اللاتينية الى اسبانيا فى أبريل ٣٤ هو انبهاره بموهبة الشاعر اشيلى نيرودا ، فكان خير مرهص به وبأعماله لدى الشعراء والكتاب الاسبان ، مما مهد له الطريق بعد ذلك عند وصوله الى مدريد .



فاجعة مصارع الثيران

مع بداية فصل الصيف من عام ١٩٣٤ ، كان شاعرنا يضع لمسائه الأخيرة فى مسرحيته الجديدة : يرما ، متنقلا من موضع لآخر مع مسرح « لاباراكا » . وحين كان المسرح يقدم عروضه فى مدينة « سنتندير » فى شمال اسبانيا ، يصله النبا الفاجع باصابة صديقه الحميم « اجناثيو سانشز ميخياس » مصارع الثيران العظيم ، فى حلبة المصارعة فى مدريد يوم ١١ أغسطس . ويتأثر لوركا تأثرا عظيما بهذا الحادث ، الذى أودى بحياة صديقه فى النهاية ، ويجد نفسه مرة أخرى وجها لوجه أمام الموضوع الذى ما فتئ يناوشه منذ زمن : موضوع الموت .

وقد اُشار كثير من النقاد الى ذلك الموضوع الذى شغل بال الشاعر كثيرا وتبدى فى كثير من « تيمات » قصائده وصوره الشعرية . فكما ذكر بدرو ساليناس فى مقالة له عن موضوع الموت لدى لوركا ، يكمن « الموت » فى قصائده ، فى الأعمال الطبيعية العادية ، وفى الأماكن التى لا ينتظره أحد فيها . وما أن يدخل القارئ الى عالم لوركا الشعرى فى قصائده وموايله وحكاياه ومسرحياته ، حتى يشعر أنه ينغمس فى جو غريب . ان المناظر التى يقدمها شعبية عادية ، ولكن أجواءها تعمر بالنذر والمخاطر الخفية ، وتعبورها الاستعارات والتشبيهات الشعرية كطيور الشؤم . ومصير كل الشخصيات التى يخلقها لموركا - سواء فى شعره أو فى مسرحياته - مآلها الى الموت ، فالمؤلف يخلقها ويضعها فى طريق لا يؤدى بها الا الى الموت ، ويتبدى هذا أكثر ما يتبدى فى ثلاثيته المسرحية : عرس الدم - يرما - بيت برناردا ألبا . وهذا ما يدعو

الى القول بأن رؤيا الحياة والانسان لدى لوركا قد تأسست على فكرة الموت . والشاعر فى هوسه بهذا الموضوع وتغلغله فيه انما يعكس التسليم بأهمية الموت ومكانه فى حياة الاسبان عموما ، فالشعب الاسبانى هو من أكثر شعوب العالم قربا من عقيدة الموت ، التى تتبدى - على مرالعصور - فى فنونه من تصوير ونحت وأعمال قصصية ومسرحية تدور حول هذا الموضوع . ولا عجب أيضا أن كانت الرياضة الأولى لدى الاسبان - وهى ترجع الى ما قبل الفتح العربى الاسلامى - هى رياضة مصارعة الثيران التى ان هى الا تمثيل حى للصراع بين الحياة والموت ، ينتهى أحيانا بموت المصارع ، وحتما بموت الثور .

لذلك كانت أشمل مواجهة فنية بين لوركا وبين فكرة الموت تتصل بالقصيدة التى سطرها غداة وفاة صديقة مصارع الثيران . وكان « سانشز ميخياس » قد اعتزل حلبة المصارعة بعد نجاح باهر ، ولكن هيامه بهذه الرياضة - رياضة الرجال والشجاعة ومواجهة القدر - دفعته الى العودة الى مضمارها وقد بلغ من العمر الثالثة والأربعين ، وهى سن عالية يعتزل فيها المصارعون عادة عملهم . وبعد حفلات عديدة ناجحة ، يطلب منه أحد زملائه المصارعين أن يحل محله فى مصارعة بمدريد ، وهى التى انتهت باصابته بجرح يبلغ من قرن ثور أسود ضخم ، صارع المصارع بعده الموت لمدة يومين ثم قضى فى ١٣ أغسطس ضحية حبه لهذه الرياضة ولشجاعته أمام الثيران .

ويصيب لوركا أحزانه على صديقه فى مراثية صادقة من أربعة أقسام كتبها كلها فى أربعة أيام ، ويتناقلها الأصدقاء والشعراء قبل أن تطبع فى النهاية فى كتيب شعرى وحدها مع رسوم بريشة «خوسيه كاباييرو» وهذه المراثية من أشهر قصائد لوركا الطويلة ، ونقف جنبا الى جنب مع المراثى الشعرية الخالدة ، مثل المراثية التى كتبها « توماس جرائ » ، ومراثية « أدونيس » التى سطرها شيللى فى رثاء « جون كيتس » وغيرهما . وقد نجح لوركا فى تصوير جو مصارعة

الثيران مقرونا بنفسية المصارع والجمهور ، الى حد يجعل القارىء
يدخل مباشرة الى جو الصراع الأبدى بين المصارع والثور ، بين
الانسان والقدر ، الذى يجعله دائما فى مواجهة الموت ، الذى يأتى
دائما فى النهاية :

١ - الجرح والموت

فى الخامسة من بعد الظهر
كانت الساعة الخامسة تماما بعد الظهر
احضر صبى الملاعة البيضاء
فى الخامسة من بعد الظهر
وأعدت سلة الليمون
فى الخامسة من بعد الظهر
وما تبقى هو الموت ، والموت وحده
فى الخامسة من بعد الظهر
وأطارت الريح القطن
فى الخامسة من بعد الظهر
ونثر الأوكسيد الزجاج والنيكل
فى الخامسة من بعد الظهر
والحمامة تتصارع الآن مع الفهد
فى الخامسة من بعد الظهر
وثمة فخذ ذو قرن وحيد
فى الخامسة من بعد الظهر
وأجراس تقرر انغاماً محمومة

فى الخامسة من بعد الظهر
 أجراس زرنيفية ودخان
 فى الخامسة من بعد الظهر
 والجماعات صامئة فى كل الأركان
 فى الخامسة من بعد الظهر
 والثور وحده هو سيد الموقف
 فى الخامسة من بعد الظهر
 حين ظهر شريان الثلوج
 فى الخامسة من بعد الظهر
 حين غطيت الحلبة باليود
 فى الخامسة من بعد الظهر
 وأفرخ الموت بيضاً فى الجراح
 فى الخامسة من بعد الظهر
 فى الخامسة من بعد الظهر
 فى الخامسة تماماً من بعد الظهر
 مرقده كفن يجرى على عجالات
 فى الخامسة من بعد الظهر
 وتدفق فى أذنيه عظام ومسامير
 فى الخامسة من بعد الظهر
 والثور يخور فى جبهته
 فى الخامسة من بعد الظهر
 ويملاً الأسى الغرفة بالوان قوس قزح
 فى الخامسة من بعد الظهر
 وهامى الغرغرينة تأتي من بعيد
 فى الخامسة من بعد الظهر
 وفى عجيزته الخضراء بوق من زنايق

فى الخامسة من بعد الظهر
واحترقت الجراح كالشموس
فى الخامسة من بعد الظهر
وكانت الجماهير تحطم النوافذ
فى الخامسة من بعد الظهر
آه ٠٠٠

يا لثلك الخامسة من بعد الظهر الفظيعة !
كانت الخامسة فى كل الساعات !
كانت ظلال الخامسة من بعد الظهر !

٢ - الدم المراق

لا أريد أن أراه !
قل للقمر أن يطلع
فلمست أريد أن أرى دم اجثاوي على الرمال
لا أريد أن أراه !
القمر ساطع مثير
جواد السحب الداكنة
وحلبة المصارعة الحلمية الرمادية
واعواد الصفصاف فى المدرجات •
لا أريد أن أراه !
ذكرىاتى تحترق
أنبيء الياسمين بيضاؤه الصغير

لا أريد أن أراه !
بقرة العالم القديم
مرت بلسانها الخرين
على خيط من الدم المراق على الرمال
وثيران « جيساندو »
نصفها موت ونصفها حجر ،
تخور كقرنين
أنهكهما التطواف في الأرض
كلا ،
لا أريد أن أراه !

يصعد اجناتيو الدرجات وموته على كتفيه
كان ينشد الفجر
الفجر الذي لم يكن له وجود
كان ينشد بروفييه الوثائق
ويملاهُ الحلم بالعثمات
كان ينشد جسده الجميل
فصادف دمه المفتوح
لا تطلبوا منى أن أراه !
لا أريد أن أسمع الفيض يخور ...
فيض يضيء الدرجات
ويفيض على المخمل القطنى
وجلود الجماهير الملهوفة •
من يهيب بى أن أتقدم !
لا تطلبوا منى أن أراه !

لم تنغلق عيناه حين رأى القرنين يقتربان
 ولكن الأمهات المذعورات رفعن رؤوسهن
 وارتفعت نسمة من الأصوات الخفية
 من بين حظائر الثيران
 وصاحت حظائر الضباب الشاحب
 فى وجه الثيران السماوية •
 لم يكن ثمة أمير فى « أشبيلية » يضارعه
 ولا سيف يضارع سيفه
 ولا قلب صادق كقلبه
 مدهش القفزة كالنهر الأسود
 مرمى الجسد بحصافة بارعة
 ورأسه مكلل بأجواء روما اندلسية
 وعلى ابتسامة ياسمينية من اللماحة والذكاء
 ياله من مصارع فى الحلبة عظيم !
 ياله من جيلى قح فى وسط الجبال !
 يالظرفه مع سنبلات القمح !
 يالصلابته مع الجراح !
 يالرقته مع الذدى !
 يالبهائه فى المهرجانات !
 يالروعته فى سهام الظلمة الأخيرة !
 ولكن ...
 هاهو نام الآن نومة أبدية ،
 الآن تفتح الطحالب والحشائش
 زهرة جمجمته بأصابع وانقة
 والآن يأتى دمه يغنى

يغنى فى المستنقعات والمروج
ينزلق على القرون المنحدرة
يتعثر فى الضباب دونما روح
يتعثر فوق آلاف الخفوف
كاللسان الطويل المظلم الحزين
وتكونت بركة من أسى
بالقرب من نهر « الوادى الكبير »
الملىء بالأتجم
آه يا جدار اسبانيا الأبيض !
آه ياثور الأسى الأسود !
آه يادماء « اجناثيو » المتجمدة !
آه يابلبل عروقه الصداح !
كلا ،
لا أريد أن أراه !
ليس هناك من قدح يحتويه
ليس هناك من طيور تلعبه
ليس هناك من صقيع ضوء يبرده
ليس هناك من أغاني ولا طوفان من الزنايق
ليس هناك من زجاج يغطيه بالفضة •
لا ...
لن أراه !

٣ - الجسد المسجى

قطعة الحجر

هي الجبهة التي تنوح عليها الأحلام
وقد حرمت من المياه الملائوية والأرزات المتجمدة •
قطعة الحجر

كتف يحمل الزمان

مع أشجار الدموع وأشرطة الكواكب
لقد رأيت شاييب رمادية تهرع نحو الموجات
ترفع ذراعيها الرقيقين المفلغزين
كيما تصد عنها أسر الحجر الممدد
الذى يفكك أطرافها ولا يتشرب الدماء •

الحجر يجمع الحبوب والسحب

يجمع هياكل الحدآت وذئاب الشفق
ولكنه لا يخرج صوتا ولا بللورات ولا نيرانا
بال حلبات مصارعة وحلبات مصارعة
ومزيذا من حلبات المصارعة
بدون جدران •

الآن يرقد « اجناثيو » الذبيل على الحجر •
لقد انتهى كل شيء • ماذا يحدث ؟
انظروا الى جسده !
لقد غطاه الموت بالكبريت الشاحب
وتوجه برأس « منياطور » أسود

لقد انتهى كل شيء
ما هو المطر يتسرب الى فمه
ويهدر الهواء صدره الساقط في نزوه
ويدفىء الحب نفسه على قطعان الثيران
وقد أغرقته دموع الثلوج

ماذا يقولون ؟
ويهبط صمت مريع
نحن هنا مع جسد مسجى يزوى
مع جسد نبيل كان له بلابله الشادية
نراه يمتلىء بالثقوب التى لا قاع لها •

من ذا الذى يطوى الكفن ؟
ليس صحيحا ما يروون •
ليس هناك من يغنى
أو يبكى فى الأركان
أو ينبجس جراحه
أو يخيف الشعبان
أريد هنا أن ترى عينائى المستديرتان
جسده الذى لا راحة له •

أريد هنا أن أرى الرجال ذوى الأصوات القوية
هؤلاء الذين يصطدمون بالجياذ
ويسيطرون على الأنهار
هؤلاء الرجال الذين تصلصل هياكلهم
والذين يغنون بأفواه ملؤها الشمس وحجر الصوان

أريد هنا أن أراهم
أمام هذا الحجر
أمام هذا الجسد ذى الأعنة المحطومة
أريد أن يبينوا لى رثاء كالنهر
بضبابات عذبة وشطآن منحدرّة
لتحمل جسد « اجناثيو »
ويخفوه قبل أن يسمع خوار الثيران المزدوج
فليذب فى حلبة القمر الدائرية
التي تتخفى فى شبابها بالثبور الحزين الهادئ •
فليذب فى أستار الليل
دون أغاني الأسماك ،
فى أيكات الدخان المتجمد البيضاء •
لا تغطوا وجهه بالمناديل !
فليتعود على الموت الذى يحمله •
أذهب يا « اجناثيو »
ولتنس الخوارات المحمومة
نم
خلق عاليا
استترج
فحتى البحار تموت !

٤ - روح غائبة

الثور لا يعرفك
ولا شجرة التين
ولا جياذ منزلك ولا غلاته •
الطفل لا يعرفك
ولا الأصائل
لأنك قد مت الى الأبد

قطعة الحجر لا تعرفك
ولا قماش الساتان الذى يلفك
ذكرياتك الخرساء لا تعرفك
لأنك قد مت الى الأبد •

سيأتى الخريف بأبواق الرعاة
بأعنايه الضبابية وقلاله المتجمعة
ولكن لن يريد أحد أن يطل فى عينيك
لأنك قد مت الى الأبد

لأنك قد مت الى الأبد
مثل كل موتى الأرض الآخرين
مثل كل الموتى المنسيين
فى كومة الكلاب الغامضة •

لا أحد يعرفك ،
لا • ولكنى أغنى لك

أغنى لخلقاء وجهك وسماحتك
 لتضج قهملك النبيل
 لشهيتك للموت ومذاق فمه
 للحن الدفين فى بهجتك الجسور •
 لن يولد أندلسى فى مثل نبالتك
 أزمانا طويّلة
 ولا فى ثراء مخاطرلك
 أغنى لهذه الجلالة بكلمات كالآتين
 وأذكر نسمة حزينة هفت بين أشجار الزيتون •

ومضى لوركا بعد فراغه من وضع قصيدة مصارع الثيران ،
 يعمل فى مسرحية جديدة هى «الآنسة روزيتا العانس أو لغة الزهور»
 ويشرف على اعداد مسرحية «يرما » للعرض على المسرح • ويبدأ
 عرض تلك المسرحية يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٣٤ فى المسرح الاسباني
 بمدريد ، بفرقة الممثلة « مرجريتا شيرجو » •

وفى مسرحية «يرما » - كما فى سابقتها « عرس الدم » -
 يعالج الشاعر موضوعا ريفيا وبطلها غير المنظور هو جو الاختناق
 والحصر والحسد الذى كان يسود حياة الريف الاسباني أيامها
 - وبطلة المسرحية - يرما - تعيش مأساة تتمثل فى عقم زوجها .
 وينشأ الصراع الدرامى من الزوج الذى لا يرى فى زوجته سوى
 الأنثى التى تشبع رغبته ، ومن يرما التى لا ترى فيه الا الآب الذى
 يجب أن يهبها ابنا • وتتفاعل عواطف الزوجة التى تحلم بالابن
 من احساسها الدينى الذى يحملها على الامانة والاخلاص بين
 الزوجيين ، فهى لاتب أن تخون زوجها لتشبع نهمها الى الانجاب ،
 وتفضل فى النهاية أن تقتل زوجها العقيم ، فى مشهد بلغ ذروته من
 العنصر الدرامى العنيف ، إذ نرى فيه مأساة حياتها التى ترغب فى
 انهاءها بانتهاء حياته • وهى إذ تقتله فانما تقتل نفسها روحيا ورمزيا
 فى نفس الوقت ، إذ انها بقتله تقتل كل أمل لها فى الانجاب الذى
 تراه هو هدف حياتها وسبب وجودها •

ومسرحية يرما هي أول تراجيديا للمؤلف تقوم على قاعدة عريضة من الواقعية الدرامية . فبينما يسيطر على شخصيات «عرس الدم» شعور مشترك بالمشاطرة في قدر تراجيدى ، يقع كل العيب التراجيدى فى «يرما» على شخصية واحدة تتحمله وحدها ، وهى البطلة يرما . . . ويرى الناقد الأمريكى «أدوين هونيچ» أن «يرما» هى أعظم أنجاز فى مسرح لوركا كله من الناحية الأخلاقية والدرامية على حد سواء وأن شخصية «يرما» ترتفع من مجرد رمز لمشكلة انسانية الى تجسيد حى لشخصية تراجيدية لها كل الأبعاد الدرامية المطلوبة .

وغداة الاحتفال بمرور مائة ليلة على عرض المسرحية ، يصرح لوركا لأحد الصحفيين بحديث يشكل الآن لغزا أدبيا فى حياة الشاعر ، إذ أنه يقول أنه قد انتهى تقريبا من الجزء الثالث من الثلاثية الدرامية وهو باسم «دمار سدوم» . . . ويقفز الآن سؤال عن ذلك العمل المسرحى ، إذ أن لوركا لم يقرأه على أحد من أصدقائه ، كما أنه لم يخلف وراءه أى مخطوط يحمل ذلك الاسم ، فهل ياترى كان يلمح عند ذكره للجزء الثالث الى مسرحية «بيت برناردا ألبا» ، التى تعد بالفعل الحلقة الثالثة فى ثلاثيته الأندلسية ، أم أنه كان يقصد به عملا آخر مفقودا الآن ؟ وثمة احتمال آخر ، وهو أن ذلك العمل كان لايزال مجرد فكرة فى ذهن الكاتب ، حمله حماسه المعروف عنه الى الاعلان عن قرب انتهائه منه . ذلك أننا نجده يصرح فى حديث له نشر فى مجلة «الصوت» فى ١٨ فبراير ١٩٣٥ أنه يخطط لعدد من «المسرحيات الدرامية ذات الطابع الانسانى والاجتماعى ، وثمة مسرحية منها تناهض الحرب» . كما أنه يتحدث أيضا عن مشروع عمل أدبى آخر عن القديسة الصوفية «سانتا تيريزا» . . . غير أن الوقت لم يتح له ولا المزيد من العمر كيما يحقق تلك المشروعات الأدبية . وفى نفس تلك المقابلة الصحفية ، نجده يقول عن مهنته : «أحيانا ، حين أرى ما يحدث فى الدنيا ، أتساءل : لماذا أكتب ؟ ولكن . . . يجب الاستمرار فى العمل ، والمضى فيه قدما . العمل ، ومد يد المساعدة الى من يستحق . العمل حتى ولو ظن المرء

انه يعمل بلا طائل • العمل كشكل من أشكال الاحتجاج • ذلك انه يقيم العمل ، فليس أمام المرء الا أن يصرخ كل يوم عند الاستيقاظ من النوم ، فى عالم مليء بالظلم والبؤس من كل شكل ونوع : انى أحتج ! انى أحتج ! انى أحتج ! » •

وتزخر المسارح الاسبانية فى ربيع عام ١٩٣٥ بمسرحيات لوركا المختلفة ، ويجد الشاعر نفسه وفنه يعود عليه لأول مرة بالكسب المادى الذى يفيض عن حاجته • ولكنه كان ينفق كل ما يصل الى يده من مال • وكان يرأوده حلم لم يتمكن آخر الأمر من تحقيقه وهو أن يكون له بيت خاص به ، يشيده ويؤثته على ذوقه ، يكون مواجهها للبحر الأبيض فى شاطئ مالقة • بيد انه يظل قاطنا شقيقته الجميلة ، ١٠٢ شارع القلعة بمدريد ، التى تغمرها الشمس ، فى طابق عال ، وذات شرفات على الجانبين ، حيث كان يعيش سعيدا ، يستقبل زواره من الأدباء والفنانين بالبيجامة صيفا وبالروب دى شامبر شتاء !

وتعتبر شهرة لوركا حدود العالم الاسبانى الى فرنسا وإنجلترا ، حيث يذيع راديو باريس ترجمة مسرحية يرما ، وتصدر ترجمة انجليزية لمسرحية « عرس الدم » تحت عنوان Bitter Oleander

وزمانه ، فى عام ١٨٨٥ ، ثم الشخصيات الأساسية فى المسرحية : العم ، الذى يهتم باستنبات الورود فى الخيمة الزجاجية التى أنشأها فى منزله ، والعمة التى تدير شئون المنزل بمساعدة المدبرة التى تعلق على كل ما يحدث من حولها • ثم يتعرف القارئ على روزيتا ، وعلى خطيبها الذى يشكل عنصر المأساة ، اذ يضطر الى السفر الى أمريكا الجنوبية تنفيذا لمطلب أبيه كيما يساعده فى أعماله هناك ، الا انه يعد العمة وروزيتا نفسها بالعودة سريعا لانتماء الزواج • وفى الفصل الثانى ، يكون قد مر خمس عشرة سنة ، لم تغير من روزيتا الا مظهرها الخارجى ، ولكنها لاتزال تنتظر خطيبها المسافر • وقد توقف الزمن بالنسبة اليها عند اللحظة التى سافر فيها الخطيب ، ولم تعد تعيش الا فى فكرة حضوره للزواج منها ،

وتمضى فى ترتيب أمور العرس والاعداد له . وينتهى الفصل بوصول خطاب من الخطيب بعدم استطاعته الحضور ، وانه لذلك يعرض استعداده لعقد قرانه على روزيتا « بالتوكيل » الى حين حضوره . ويبدأ الفصل الثالث بعد مرور عشر سنوات أخرى ، والوقت خريف موحش ، وما زالت روزيتا ترتدى ملابس وردية وتتابع الأزياء الحديثة . بيد أنها تعرف جيدا أن الشباب قد ولّى من بين يديها ، والخطيب لم يتزوجها بالتوكيل أو بغيره ، ولم يعد ولن يعود أبداً . وفى هذا الفصل تعلم أن العم قد مات وأن العمّة والمديرة قد نالت منهما الشيخوخة ، وهما يتحسران على مصير روزيتا ، فقد علمتا منذ شهور فقط أنه قد تزوج من امرأة ثرية فى أمريكا الجنوبية منذ ثمانى سنوات ، وهما قد أخفيا ذلك عن روزيتا ثم نكتشف أنها تعلم ذلك من قبل . وتطلق روزيتا كل إحاسيسها بالاحباط واليأس فى حديث طويل الى عمّتها وتعترف لها بأنها كانت تعلم كل شئ عن زواج الخطيب ، وتصور نفسها وقد توقفت الزمن بالنسبة لها بينما صديقاتها يتزوجن وينجبن أطفالا يزورونها وينادونها بالآنسة روزيتا . ويخل المنزل اطلالا ، فقد كان العم قد ارتنه قبل وفاته فلا مقر من بيعه . ويخرج سكانه تحت جنح الظلام بينما الريح يعصف كأنما يشارك روزيتا حزنها وقنوطها .

وهذه المسرحية هى أشد مسرحيات لوركا رقة وشاعرية ، نظرا لموضوعها الرومانسى الحزين ، ويذكر ويساهم لوركا فى أول عدد من المجلة الأدبية التى يصدرها « بابلو نيرودا » فى مدريد تحت اسم « فرس الشعر الأخضر » بقصيدة من القصائد التى نشرت فيما بعد فى ديوان « شاعر فى نيويورك » ، وعنوانها « ليلية الفراغ » . ثم ينتقل الشاعر فى خريف ١٩٣٥ الى برشلونة حيث يحضر افتتاح مسرحية « الآنسة روزيتا العانس » التى قدمتها فرقة « مرجريتا شيرجو » هناك . ويشارك أثناء وجوده فى برشلونة فى عديد من المهرجانات الفنية والأدبية ، منها مظاهرة فنية تأييدا للمسجونين السياسيين ، ومهرجان لتكريم ذكرى الموسيقار الأسباني الشهير « اسحق البينيتز » ، حيث دبح الشاعر قصيدة باسمه قرأها أمام مقبرته فى تل « موتخويس » ببرشلونة .

ومسرحية « الأنسة روزيتا العانس » أول مسرحية للوركا تحمل عنوانا اضافيا ، هو « لغة الزهور » . وقد وصفها مؤلفها بأنها « قصيدة غرناطية عن عقد التسعينات (من القرن التاسع عشر) تنقسم الى عدة بساتين وبها مناظر غناء ورقص » . والمسرحية من ثلاثة فصول ، يقدم لنا الفصل الأول مكان الحدث وهو غرناطة ، جو الكتابة والشجن فيها بجر مسرحيات « تشيكوف » خاصة « بستان الكرز » .

وكانت « الأنسة روزيتا العانس » هي آخر مسرحية تعرض على المسرح في حياة مؤلفها ذلك أن مسرحياته الأخرى ، ومنها « بيت برناردا البيا » لم تعرض لأول مرة الا في عام ١٩٤٥ ، في المكسيك ، كما سنرى بعد ذلك .



١٩٣٦

ويحل عام ١٩٣٦ ، وهو عام حاسم فى تاريخ اسبانيا وفى حياة شناعرنا ، اذ شهدت البلاد فورانا هائلا زاخرا بالأحداث الجسم التى أدت فى النهاية الى مصرع الشاعر . ولما كانت « قضية » مصرع لوركا قد نالت من الاهتمام والبحث قدر ما ناله شعره ومسرحه ، فسوف نعرض بشيء من التفصيل للأحداث التى أدت الى تلك النهاية .

فى ربيع ١٩٣٦ ، كان قد مر على الجمهورية الاسبانية الوليدة خمسة أعوام شهدت تقلبات عديدة . فمئذ ولادة الجمهورية عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٣ ، تولى الحكم برلمان اشتراكى يسارى ولكن انتخابات عام ١٩٣٣ أعادت القوى الملكية التقليدية المحافظة الى الحكم مرة أخرى فى ظل الجمهورية . وكان سبب انتصار القوى المحافظة راجعا الى ثلاثة عوامل جوهرية : أولا ، أن قانونا صدر عام ١٩٣١ منح المرأة حق الانتخاب لأول مرة فى اسبانيا ، قصوت معظم النساء الكاثوليكيات المحافظات ضد القوى اليسارية التقدمية . وثانيها ، أن الانتخابات كانت تتم عن طريق نظام « القوائم » للمرشحين ، وكل دائرة انتخابية لها عدد محدد سلفا من المقاعد لكل من الأغلبية والأقلية . وفى دائرة مدريد مثلا ، كان هناك ١٧ مقعدا ، منها ١٣ للأغلبية و ٤ للأقلية ، وفى غرناطة ، ١٠ مقاعد للأغلبية و ٣ مقاعد للأقلية ، وهكذا فى كل الدوائر . وهذا يعنى أنه بالرغم من حصول أحزاب الأقلية على أعداد كبيرة من الأصوات ، الا أنها لا تمثل فى البرلمان الا بتلك المقاعد المحجوزة لها سلفا وثالث تلك العوامل ، أن أحزاب المعارضة - من ملكيين ومحافظين ومتدينين -

قد تعلمت جيدا عن درس انتخابات ١٩٣١ ، ووجدت من صفوفها في الانتخابات الجديدة ورغم الخلافات الشديدة التي تقوم فيما بينها في داخل الاطار المحافظ ، في حين أن الأحزاب الجمهورية والتقدمية لم تدخل تلك الانتخابات كجبهة موحدة ، بل كأحزاب متصارعة متنافسة ، مما جعلها تخسرهما . وعمدت حكومة عام ١٩٣٣ المحافظة الى هدم معظم ما بنته الحكومة الجمهورية الأولى ، مما أثار حفيظة الطبقات العمالية والفقيرة في طول البلاد وعرضها ، وأدى ذلك - ضمن جملة أمور - الى حدوث تمرد خطير قام به عمال مناجم الفحم في اقليم « اشتورياس » بشمال اسبانيا ، قامت الحكومة المحافظة بقمعه في شدة وقسوة وصرامة أثارت مزيدا من السخط عليها . وظل الموقف متوترا على هذا النحو بين شد وجذب الى أن جرت انتخابات جديدة في فبراير ١٩٣٦ انتصرت فيها الجبهة الشعبية المكونة من اتحاد الأحزاب التقدمية ، انتصارا ساحقا تحت ظل نظام القائمة السابق الاشارة اليه . فرغم أن عدد الأصوات التي حصلت عليها الجبهة الشعبية هو ٤٧٠٠٠٠٠ وأصوات الجبهة الوطنية المحافظة هو ٣٩٩٧٠٠٠ ، إلا أن عدد المقاعد التي منحت للفائز هي مقاعد الأغلبية المطلقة .

وفي الفترة الواقعة بين تاريخ هذه الانتخابات في فبراير ١٩٣٦ ، و ١٨ يولية ١٩٣٦ تاريخ الانقلاب العسكري الملكي المحافظ ، كانت البلاد بطولها وعرضها مسرحا لحوادث التوتر بين الجبهتين الرئيسيتين : التقدمية والمحافظة . وكان يمثل التقدميين المنظمات العماليتان الرئيسيتان وهما CNT أي « الاتحاد القومي للعمل » وهي ذات ميول فوضوية ، و UGT أي « الاتحاد العام للعمال » وهو حزب اشتراكي ، ثم الشيوعيون . أما في حزب اليمين المحافظ : فقد برز حزبان رئيسيان عملا جنبا الى جنب رغم العداء والخلاف الدفينين بينهما : « الفلانج » أي الكتائب التي أسسها عام ١٩٣٣ « خوسيه أنطونيو بريمو دي ريفيرا » ابن دكتاتور اسبانيا السابق ، وحزب « سسيديا » بقيادة « خييل روبليس » الذي كان يركز على العنصر الديني ويبرزد .

وما ان تولت الحكومة التقدمية الحكم بعد انتخابات فبراير ١٩٣٦ حتى عمدت الى العودة بالبلاد الى الوضع الاشتراكي والقوانين الاشتراكية . ولكن ذلك بالطبع لم يرض الجانب الآخر جانب المحافظين والأثرياء ومالكي الأراضي ، فبدأوا حملة منظمة ضد اقطاب الأحزاب التقدمية . وفي البداية ، رد العمال والفلاحون على أول الاغتيالات التي أصابت زعماءهم بالاضرابات والمسيرات ضد قوى الرجعية ولكن ، حين استمرت سلسلة الهجوم والاغتيالات. ازداد السخط الشعبي ، وبدأ التقدميون يردون بالمثل . واتسعت الهوة السحيقة التي تفصل بين الجانبين ، وأخذت تزداد اتساعا مع كل يوم يمر .

وفي ظل هذه الحالة ، يجرى في ١٢ يولية ١٩٣٦ اغتيال أحد أفراد حرس الهجوم - وهي فرقة حكومية جمهورية - على يد مجهولين يظن أنهم من حزب « كفالانج » . وفي ١٣ يولية ، يريد الجمهوريون باغتيال قطب من اقطاب الملكيين هو « كالفو سوتيلو » وتعم البلاد موجة من الاستياء والغضب والرغبة ، بينما يظل مجلس الوزراء في حالة انعقاد دائم في محاولة للسيطرة على الموقف وتحسبا لأي انتقام يمكن أن يقوم به الملكيون ردا على تلك الضربة القاصمة . وفي وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والانتظار ونذر الخطر التي تحيط بالجمهورية الوليدة ، يقع الانقلاب العسكري الملكي .

ففي ١٨ يولية ١٩٣٦ ، يلقي الجنرال « فرانسيسكو فرانكو » بيانا من اذاعتي « جزر الكناري » ومراكش الاسبانية ، آنذاك ، معلنا قيام « الحركة الوطنية » ، طالبا من جميع الاسبان الوطنيين الانضمام اليه . وكان التمرد الانقلابي قد بدأ أساسا - بتدبير سابق معد له سلفا اعدادا محكما - في حامية مدينة « مليلة » في المغرب . تعاونها الفرقة العسكرية الاسبانية الرابطة هناك . وحدث تمرد مماثل في « سبتة » و « تطوان » بنفس القدر من النجاح ، وبات المغرب الاسباني كله وجزر الكناري تحت امرة قادة الانقلاب ، الذين بدأوا الاستعداد لنقل التمرد الى أرض الوطن ذاته .

وفى البداية ، أذاعت الحكومة الجمهورية نبأ وقوع تمرد فى
مراكش الاسبانية - وهو ذلك الجزء من أراضى المغرب التى كانت
تحتله اسبانيا آنذاك - ولكنها أكدت سيطرتها على الموقف فى أراضى
الوطن وأنها بصدد سحق التمرد . ولكن كان قد خفى على القائمين
بالأمر فى حكومة الجمهورية تواطؤ كثير من القادة العسكريين فى
كثير من المدن الاسبانية الرئيسية للقيام بتمرد فى وقت واحد . .
وهكذا سيطر « الجنرال كيبيو دى يانو » على حامية « أشبيلية »
مما أسقط المدينة كلها فى قبضة الانقلاب . وحدث بعد ذلك نفس
الشئ فى عدد من كبريات المدن ، بقدر متفاوت من النجاح والفشل ،
وكان هذا النجاح والفشل هو الذى قسم البلاد الى قسمين يكادان
يتعادلان قوة : جانب الجمهوريين الذين قاتلوا التمرد دفاعا عن
الشرعية ، وجانب الملكيين - الذين اتخذوا اسم الوطنيين - الذين
قاتلوا دفاعا عن الملكية والقوى المحافظة من كنيسة ومالكي أراض
وجنرالات . وقد انضم الى جانب الجمهوريين كل طوائف اليساريين
والاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين .

وكان هذا التعادل فى القوى هو الذى أشعل الحرب الأهلية
بين الطرفين ، وجعلها تستمر ثلاثة أعوام الا قليلا ، فى حرب بين
الأخ وأخيه ، عرفت بأنها أبشع حرب أهلية فى التاريخ وأشدّها
قسوة وضراوة .



غرناطة ولوركا

فى قمة الأحداث التى سردناها سابقا ، وجد الشاعر نفسه يوم ١٨ يوليو ١٩٣٦ فى بلدته ، يقضى الصيف كعادته فى منزل العائلة بالفيلا المسماة « بستان سان فيسنت » فى ضواحي غرناطة . كان قد حسم لتوّه مشروعا كان يمكن أن يغير مجريات الأحداث التى انتهت به الى غاية فاجعة ، ذلك أن فرقة « مارجريتا شيرجو » المسرحية كانت تعد لجولة فى أمريكا اللاتينية فى فترة الصيف تبدأها بالمكسيك ، وعرضت على الشاعر أن يسافر برفقتها الى هناك . ورغم أنه كان قد قبل الفكرة مبدئيا ، إلا أنه انغى المشروع بعد ذلك ، مفضلا البقاء فى اسبانيا للانتهاء من أعماله الأدبية المعلقة والاشراف على اخراج الأعمال المسرحية التى كانت توشك على أن ترى النور . وهكذا أنفذ القدر كلمته ، وبقي لوركا فى وطنه فى تلك الفترة المضطربة كيما يواجه مصيره المحتوم .

ورغم أن الشاعر كان بعيدا كل البعد عن المشاركة السياسية أو الانحياز صراحة الى أى من الأحزاب السياسية المتصارعة آنذاك ، إلا أن ثمة أعمالا اشترك فيها قد حسبت عليه بعد ذلك ، رغم أنها مواقف انسانية تنبع أساسا من حب الانسانية والحرية . ومن بين هذه الأعمال مايلى :

— أن الشاعر — عند مشاركته فى الحفل الذى أقيم لتكريم زميله « رافاييل ألبرتى » بمناسبة عودته من زيارة لروسيا — قد ألقى بيانا للكتاب الاسبان ضد الفاشية .

- انضمامه الى الموقعين على بيان للاتحاد العالمى للسلام .
- توقيعه على رسالة موجهة الى رئيس جمهورية البرازيل تطلب العفو عن القائد الثورى البرازيلى « لويس كارلوس برستس » .
- ادلائه بحديث الى مجلة « المساعدة » لسان حال عصابة عمالية شيوعية .
- اشتراكه فى تكريم ثلاثة أدياء فرنسيين يمثلون الجبهة الشعبية فى بلادهم وهم : « أندريه مالرو » - « جان كاسو » - « لى نورمان » .
- الاعلان عن اشتراكه فى حفل لتكريم « مكسيم جوركى » الكاتب الاشتراكى السوفيتى المعروف .

ان مثل هذه النشاطات العادية التى تنم عن حس انسانى عام وروح الأخوة بين زملاء المهنة الفكرية الواحدة ، يمكن أن تفسر فى ظل ظروف متغيرة تفسيرات ملتوية تلائم النفوس المتعصبة ضيقة الأفق التى ملأها الحقد والغيرة سما زعافا . وكان هذا فى الواقع هو ماحدث فعلا ، وأحداث ذلك الصيف الدامى من عام ٣٦ دليل واضح على ذلك . ورغم أن ماحدث للشاعر بعد وقوع الانقلاب الملكى فى ١٨ يوليو ١٩٣٦ يلفه تيار من الشك والغموض والأساطير، وتعرض لتفسيرات عديدة متناقضة ، الا أنه يمكن استخلاص سير الحوادث على النحو التالى :

منذ اعلان الجمهورية فى اسبانيا عام ١٩٣١ ، شهدت غرناطة صراعات عدة بين ملاك الأراضى الاقطاعيين الذين يسيطرون أيضا على صناعات السكر فى المنطقة الزراعية من غرناطة ، وبين الفلاحين والعمال المنضوين تحت لواء الحزب الاشتراكى « الاتحاد العام للعمال » . وقد رأى هؤلاء الاقطاعيون فى الجمهورية خطرا يتهدد وضعهم وثرواتهم وامتيازاتهم ، فقرروا الانصواء تحت حزب من الأحزاب الملكية هو حزب « العمل الشعبى » ! ، الذى كان فرعه فى غرناطة يصدر جريدة تعبر عنه باسم « ايدىال » التى أصبحت

لسان حال تلك الطبقة • وكانت فى مقابلها الجريدة التى تعبر عن آراء الاشتراكيين والمثقفين فى غرناطة وهى « الحامى » التى يرجع تاريخ صدورها الى عام ١٨٧٩ • وكان اليمينيون المحافظون يكسبون فى الغالب الانتخابات فى المناطق الزراعية ، حيث ملاك الاراضى ودهاقنة الاقطاع يضغطون على الفلاحين كيما يصوتوا لصالح المرشحين اليمينيين ، على الرغم من فوز اليساريين فى حواضر تلك الاقاليم ، كمدينة غرناطة مثلا ، مما كان ينتهى الى فوز اليمينيين بمقاعد الأغلبية المخصصة للاقليم كله فى البرلمان ، بينما يحوز اليساريون مقاعد الأقلية • وقد شهدت الاعوام من ١٩٣١ حتى انقلاب ١٩٣٦ مصادمات عنيفة ومناوشات لا تنتهى بين الفريقين وصحيفتيهما •

وفى انتخابات فبراير ١٩٣٦ التى فازت فيها الجبهة الشعبية اليسارية بصفة عامة ، فاز اليمينيون فوزا حاسما فى غرناطة • ولكن المرشحين التقدميين طعنوا فى صحة الانتخابات فى غرناطة وطالبوا البرلمان بالغائها وإجراء انتخابات جديدة هناك • ووافق البرلمان على ذلك وتم إجراء انتخابات جديدة فى ٣ مايو ١٩٣٦ أسفرت عن فوز اليساريين بجميع المقاعد المخصصة لغرناطة فى البرلمان • وما يهمنى فى هذا الشأن أن من بين المرشحين اليمينيين الذين فازوا فى الانتخابات الأولى الملقاة كان النائب المدعو « رامون رويث ألونسو » الذى سيرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بأحداث اعتقال لوركا واعدامه كما سنرى لاحقا •

وقد أدى ابتعاد اليمينيين تماما عن تمثيل مدينتهم فى البرلمان الى توحيد صفوفهم والاعداد سرا للانلقام بتخزين الأسلحة والتحضير للاستيلاء على الحكم بالقوة • كما أن ذلك عزز موقف « الفالانج » داخل اتحاد الأحزاب اليمينية وانتصار رأيه بضرورة استخدام العنف لصد المد اليسارى والشيوعى • وزاد فى تسهيل مهمة اليمينيين بعض الانشقاق الذى وقع بين فروع الأحزاب التقدمية فى غرناطة حول تعيين عمدة للمدينة ، وهو بمثابة المحافظ • ولم تجد هذه الأحزاب حلا الا فى اختيار الدكتور « مانويل مونتسينوس » ،

الاشتراكي ، عمدة لغرناطة • وجدير بالذكر أن « مونتسينوس » هذا هو زوج « كوتشا » شقيقة لوركا ، ولم يشغل منصبه ذلك سوى عشرة أيام ، إذ أنه كان من أوائل الأشخاص الذين أعدموا غداة الانقلاب الملكي •

وقد شهد تاريخ اسبانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر أن الجيش كان هو العامل الحاسم في ميدان السياسة ، وأن أي تغيير سياسي كبير يبدأ بانقلاب عسكري ، مثلما جرى الحال في صعود الجنرال بريمو دي ريفيرا إلى السلطة في عام ١٩٢٣ ، ثم صعود فرانكو بعد ذلك عام ١٩٣٩ • ولذلك فإنه بعد الاعلان عن تمرد القوات الاسبانية في المغرب وفي بعض المدن الاسبانية ، ونجاحها في السيطرة على عدد من هذه المدن ومنها اشبيلية التي تتبعها غرناطة عسكريا ، شاع الاضطراب في أرجاء الجو السياسي في غرناطة ، وتطلعت الأنظار إلى الحامية العسكرية المرابطة فيها • • وكان على رأس هذه الحامية الجنرال « ميغيل كامبوز » الذي أعلن ولاءه للجمهورية ، ولكن معظم مساعديه من الضباط كانوا متورطين حتى أقدامهم في المؤامرة الانقلابية دون أن يدري هو بذلك • ورغم أن عدد أفراد « القلانج » والمنظمات اليمينية المماثلة في غرناطة كان محدودا بالنسبة إلى عدد العمال والفلاحين ، إلا أن تخوف قادة المدينة الجمهوريين من توزيع السلاح على الشعب للدفاع عن الجمهورية وإصرارهم على عدم اتخاذ هذه الخطوة ، أدى إلى انفساح المجال أمام اليمينيين بما كانوا قد خبأوه من أسلحة •

وهكذا ، ففي وسط الانتظار والترقب في غرناطة ، انتهز المتآمرون في يوم ٢٠ يوليو فترة القيلولة التي تتعطل فيها الأعمال ويهجع الناس هنيئة بعد الغداء - خاصة في جو غرناطة الشديد الحرارة في الصيف ، فأنزلوا قواتهم إلى المدينة واحتلوا المواقع الهامة فيها ، ونصبوا المدافع في الميادين والطرق الرئيسية ، واضطروا الحاكم العسكري إلى اصدار بيان يعلن حالة الحرب • وأقالوا الحاكم المدني وعينوا بدله الضابط « خوسيه فالديس » الذي أصبح منذ ساعتها مسئولاً عن المدينة وإرباضها وعن تطهيرها من

كل العناصر المعارضة للملكية أو المشكوك في ولائها لها ، عن طريق حمام دم غطى المنطقة كلها بالرعب والفرع • وما أن سيطر الموالون للانقلاب على مقاليد الأمور حتى تصدوا لهذه العملية التطهيرية ، التي بدأت بقصف وحشى على تجمعات العمال والفلاحين التي لجأت الى حى « البيازين » الشعبى العربى القديم تحتوى به وتتحصن فيه • وانتهى الأمر بسحق هذه التحصينات واعتقال معظم المدافعين واعدامهم بعد ذلك •

وما ان حلت ليلة ٢٣ يوليو حتى كانت المدينة كلها فى يد اليمينيين الذين بدأوا فى الحال حمام دم لمعارضيهم السابقين ، فى مذبحه كبرى أودت بكثير من الأبرياء ، وانتهزها بعض ضعاف النفوس من المنتصرين لصب شرورهم الرخيصة والتنفيس عن أحقادهم الدفينة •



لوركا والتنهير الدموي

ظل لوركا مترددا فيما إذا كان يجدر به السفر الى غرناطة أو البقاء في مدريد حتى تنجلي الأزمة السياسية المتفجرة نتيجة للاغتيالات الأخيرة ، وانقسم أصدقاءه بين محبذ للسفر ومحبذ للبقاء . وقال أحدهم قولة شهيرة ترددت أصدائها طويلا بعد ذلك ، اذ قال : « لو أن حربا نشبت في بلادنا ونجا منها فرد واحد فقط لكان هذا الفرد هو لوركا ! » .

وهكذا استقل لوركا قطار الليل في مساء ١٥ يوليو ، وودعه حتى عربة القطار صديقه الشاعر « رافاييل ألبرتي » ، ويحكي ألبرتي أنهما شاهدا بين أروقة القطار شخصا نفر منه لوركا وتوارى عن أنظاره حتى لا يحييه أو يحادثه ، وكان هذا الشخص - كما عرف لاحقا - هو « رامون رويث ألونصو » ، النائب اليميني السابق لغرناطة في البرلمان ، والمسئول المباشر عن اعتقال لوركا بعد ذلك .

ووصل الشاعر الى منزل العائلة الصيفي في موعد مناسب للاحتفال مع الأسرة بعيد « القديس فديريكو » بالنسبة له ولوالده ، اذ أنهما كانا يشتركان في الاسم الاول ، وهو اليوم الموافق ليوم الانقلاب : ١٨ يوليو .

وقد تلقت الأسرة أنباء الانقلاب وبيانات الحكومة وما تلا ذلك من أحداث ، ببلبلة واضطراب ، شأنها شأن كل سكان الاقليم من غير المتدخلين في السياسة . ثم جاءت نذر الكارثة بعد استيلاء اليمينيين المواليين للانقلاب الملكي على المدينة ، اذ كان من أوائل

من تم القبض عليهم السنيور مونتيسينوس عمدة المدينة ، وهو زوج شقيقة لوركا ، والذي أعدم بعد ذلك بأيام . وقد علمت الأسرة بالقبض عليه في حينه ، ولكنها لم تعلم بأعدامه الا بعد ذلك بكثير .

وبعد ذلك يفتن الشاعر الى وجود شخصين مريبين يراة بان المنزل ويطوفان به من بعيد . ثم عاود نفس الشخصين المراقبة ، ودخلا المنزل هذه المرة . ولكنهما لم يكونا يبحثان عن لوركا . بل عن البستاني المسئول عن حديقة المنزل ، وكان اخا لأحد العمال المنخرطين في سلك الجبهة الشعبية . وكانت الأقوال تشير الى مسئولية ذلك الأخ عن مقتل أحد ضباط الشرطة ، وعن احراق كنيسة بلدته . ولما لم يجدوا غير البستاني ، أوسعوه ضربا ولطما . وحين حاول فديريكو التدخل ، لطما هو أيضا ، وقال له واحد منهما : « لا فائدة . اننا نعرفك جيدا ، يا فديريكو غرسيه لوركا ! » .

وفي اليوم التالي ، يتلقى لوركا خطاب تهديد غريبا . كان الخطاب يحتوى على اقتباسات من تصريحات أدلى بها الشاعر ونشرت في صحيفة « الحامي » الغرناطية التقدمية (وقد احتجبت بعد نجاح الانقلاب في غرناطة بالطبع) . ويصفه كاتب الخطاب بأنه « كلب حقير وخطر » .

وازاء ذلك كله ، ملأ الأسرة خوف مفاجيء على الشاعر من أن ينجح حساده في توريطة مع معارضى النظام الجديد أو المشبوهين . وجلس أفرادها يتداولون في أفضل حل يمكن اتخاذه لحماية لوركا في ظل هذه الظروف التي لا يأمن أحد على نفسه . . . وبرز حلان : اما أن يحاول الشاعر الهرب متخفيا الى ما وراء خطوط قوات الانقلاب الى أقرب مكان يسيطر عليه الجمهوريون ، واما أن يلتجئ الى بيت صديق من الموالين للانقلاب يمكن أن ييسط عليه حمايته . واختار لوركا الحل الثانى ، خاصة وأنه كان على صلة جيدة جدا بأحد أفراد أسرة « روساليس » ، التي يشترك أربعة من أبنائها في « الفالانج » ، والذين أصبحوا من أصحاب الحل والربط في ظل الوضع الجديد . وكان ذلك الصديق هو « لويس روساليس »

السياسي والشاعر الشاب الذي سبق أن نشر ديوانا باسم « أبريل » والذي كان يعتبر نفسه من حواربي لوركا شعريا . ويهب « لويس » لنجدة صديقه ، ويصطحبه للإقامة معه في منزله .

ويقيم لوركا في منزل أسرة « روساليس » ، التي تتكون من الأب والأم وابنة وعدد كبير من الأبناء ، منهم لويس وخوسيه وأنطونيو وميجيل ، وكلهم من العاملين في « الفالانج » . وكانت بالمنزل أيضا خالة للأولاد هي الخالة « لويسا » وتقيم في الطابق الثاني من المنزل ، وحيث أعدت الأسرة غرفة لوركا . وحدث انفجار الانقلاب في غرناطة ، انشغل أفراد الأسرة من أعضاء « الفالانج » في عمليات تثبيت دعائم النظام الجديد والقضاء على أعدائه .

ويعتاد لوركا محل إقامته الجديد ، كمادته دائما في سرعة الألفة مع الأشياء ، على الرغم من غموض الموقف ، وتردد الانبعاث عن عمليات التطهير المستمرة في المدينة وأرباضها . ويقضى الشاعر وقته في التهام الكتب التي يجدها في مكتبة أسرة « روساليس » ، العامرة . وسرعان ما تطفو شخصية الشاعر الأصلية الطفولية للمعيان ، فيعزف للخالة «لويسا» على البيانو ، بل ويشرح مرة أخرى في مواصلة العمل في مشاريعه الأدبية ، من إجراء بعض التفتيحات على مسرحية « بيت برناردا ألبا » ، إلى التفكير في ديوان جديد تحدث عنه له الخالة بعنوان « حديقة الأغاني » .

وكانت علاقة الشاعر المباشرة بمن في المنزل من أفراد العائلة هي مع لويس والخالة لويسا أكثر منها مع أي فرد آخر . وكان لويس يزوره كل مساء بعد عودته من خطوط القتال ، ويتناقشان معا في الحالة والأخبار . وقص عليه لويس كيف سيطروا على غرناطة وأرباضها ، وكيف انتهت مقاومة الأفراد الذين التجأوا إلى « البيازين » . ولكنه أخفى عنه خيرا مؤلما ، هو أعدام عديده العمد السابق لغرناطة بعد قليل من سقوط البيازين ، في ٣ أغسطس ١٩٣٦ .

ولكن أشد الفواجع إيلا ما تأتي دور تحسب ، فبعد أن أطمأن الشاعر أو كاد إلى إبتعاده عن الخطر الداهم ، وقعت الواقعة .

الجريمة كانت في غرناطة

فى الخامسة من بعد ظهر ١٨ أغسطس ، وكان رجال أسرة « روساليس » كلهم غائبين عن المنزل ، يدق جرس الباب ، ويتقدم أحد الأشخاص - هو بالتحديد « رامون رويث ألونصو » سالف الذكر - يطلب اصطحاب لوركا ! وتحاول سيدة المنزل الاحتجاج ، ولكن « ألونصو » يصر على أنه لا خطأ فى الأمر ، وأن لوركا مطلوب فى مبنى المحافظة .

وتتضارب الأقوال فى ظروف القبض على لوركا فى منزل عائلة « روساليس » ، إذ يشهد ألونصو نفسه - وهو لا يزال على قيد الحياة الآن - بأنه قد ذهب هناك لاستدعاء الشاعر بناء على أمر من نائب المحافظ ، وبعد أن اصطحب معه « خوسيه روساليس » نفسه . ولكن شهودا آخرين يؤكدون أن « ألونصو » قد ذهب الى المنزل يصحبه عدد كبير من الجنود المسلحين الذين أحاطوا بالمنزل وبالطرق المجاورة لمنع أية امكانية لهرب الشاعر ! ويؤكد « ايان جيبسون » فى كتابه الموثق عن مصرع لوركا وفقرة الرعب التى شهدت غرناطة فى ١٩٣٦ ، أن أكثر الروايات مصداقية عن ذلك هى رواية « ميغيل روساليس » . ويحكى « ميغيل » أنه حين وصلت التجريدة المسلحة للقبض على لوركا ، لم يكن فى المنزل أى من رجال الأسرة ، فرفضت الأم تسليم لوركا لألونصو وأصررت على أن يذهب أولا الى ميغيل ليخبره بذلك . ويذهب ألونصو لميغيل فى قيادة « الفالانج » حيث كان يعمل ، ويبرز له أمرا من المحافظة بالقبض على لوركا . ويعبر « ميغيل » معه الى المنزل حيث يصطحبان لوركا معهم الى مبنى

المحافظة ، بعد أن تأكد ميغيل من عبث أى اعتراض أو جدال أو مقاومة ، موقنا بإمكانية شرح الموضوع للمحافظ نفسه وحله معه .

وحين يصلون الى مبنى المحافظة ، ويجدون المحافظ متغيبا ، ويتم ايداع لوركا فى إحدى حجرات الاحتجاز انتظارا لوصوله . .
 وحين يعلم الشاعر الصديق « لويس » بأمر اعتقال صديقه ، يطير الى مبنى المحافظة حيث يحضر مذكرة بالموضوع أمام نائب المحافظ ، ويبرر فيها فى نفس الوقت الأسباب التى دعت الى استضافة لوركا فى بيته . ويحكى « لويس » عن مواجهة حدثت بينه وبين « رويث ألونصو » عند تحرير المذكرة ، قال فيها « ألونصو » أنه قبض على لوركا تحت مسؤوليته الخاصة ، متهما إياه بأنه قد سبب أضرارا بشعره أكثر مما سببه غيره من اضرار بأفعالهم !

ويعود « خوسيه » فى اليوم التالى لمقابلة المحافظ ، الذى يخبره أنه لايسـتطيع أن يفعل شيئا لأن لوركا ليس موجودا فى المحافظة ولا يدرى أين هو . ولكن المحافظ « فالديس » كان يكذب .
 إذ أن لوركا كان وقتها مودعا فى إحدى حجرات المحافظة أعدت كزنازة ، وقضى فيها ثلاثة أيام من ١٦ الى ١٨ أغسطس ، وتشهد بذلك مربية أسرة لوركا التى ذهبت تحمل له طعاما وملابس وسجائر وشاهدته مرة فى تلك الزنازة العارية من الأثاث الا من مائدة عليها محبرة وقلم وورقة ، بينما كان ثمة رجل أمامه يردد : « يالعار الابن ، يالعار الأب ! » ، والحراس على باب الحجرة شاكى السلاح . وتقول المربية أن لوركا هتف بها حين رآها : « أنجلينا .
 أنجلينا . . لماذا أتيت هنا ؟ » فردت عليه بأن والدته قد أرسلتها اليه

وفى ١٩ أغسطس ، حين ذهبت « أنجلينا » بسلة الطعام للمسجين . قال لها الحراس انه لم يعد موجودا بالمحافظة ، وانهم لا يعرفون عنه أى شىء . ولم يعرف أحدا ما حدث على وجه التحقيق ، ولكن كل الشواهد تدل على أن لوركا قد بقى فى مبنى المحافظة حتى نقل فجر ١٩ أغسطس الى المكان الذى تم اعدامه فيه .

وقد بذلت مساع كثيرة خلال تلك الأيام لانقاذ الشاعر ، منها محاولة الموسيقار « دى فايا » التوسط من أجله عن طريق بعض شباب « الفالانخ » الذين كان على صلة بهم . ويحكى أنه ذهب معهم الى المحافظة صباح ١٩ أغسطس ، ثم عاد واحد منهم متجهم الوجه ليخبره بأن الأمر قد خرج من أيديهم ، إذ أنه قد تم اعدام الشاعر فى فجر نفس اليوم !

وتفاصيل ماحدث ، كما يذكر المؤلف « جيبسون » سالف الذكر. هو أن الكولونيل « فالديس » محافظ غرناطة قام بالتوقيع على حكم اعدام لوركا بعد اتصالات أجراها برئيسه المباشر « كيبو دى يانو » قائد اشبيلية التى تتبعها مقاطعة غرناطة . واقتيد الشاعر مع مجموعة من المحكوم عليهم مثله من مبنى المحافظة الى قرية على مشارف المدينة تدعى « فرنار » ، بها مبنى يسمى « لاكلونيا » اى المستعمرة ، حولته قيادة الانقلاب الى سجن يودع فيه المحكوم عليهم بالاعدام المرسلون من غرناطة . وكان المدانون يصلون عادة الى « المستعمرة » حوالى الواحدة أو الثانية صباحا ، فيحبسونهم فى الطابق السفلى حتى الفجر . وكانوا يسمحون لمن يريد منهم الادلاء بالاعتراف الأخير الى قسيس القرية . وعند الفجر ، يقود الحراس المحكوم عليهم بالاعدام الى مكان حول السجن حيث يطلقون عليهم النار ، ويتركونهم حيث يسقطون ، الى أن يرسلوا بعد ذلك بفرقة عهدوا اليها دفنهم جماعيا فى الأماكن التى سقطوا فيها .

وتشير كل الدلائل الى أن هذا هو ماحدث مع لوركا . فبعد أن قضى ساعات قليلة فى سجن « المستعمرة » ، اقتيد فى الفجر بصحبة المقرر اعدامهم يومها ، وكان منهم اثنان من مصارعى الثيران العاملين فى صفوف الشيوخيين والمعروفين بالتطرف السياسى ، وهبطوا بهم الى مكان قريب لايزال يدعى بالاسم العربى له وهو « عين الدمة » (Aainadamar) ، حيث أطلقوا عليهم الرصاص ، لتظل جثثهم بعد ذلك فى مكانها الى أن يحضر اللحادون ليدفنوهم تحت إحدى أشجار الزيتون .

وهكذا يقضى الشاعر الأندلسى الذى جرؤ يوماً على أن يقول :
- سقوط غرناطة العربية فى يد الاسبان كان كارثة على الحضارة
والمدينة ، وبقي مدفوناً تحت الأشجار الحبيبة الى قلبه ، دون أن
يعرف له أحد قبراً حتى الآن ، لتصديق النبوءة التى ردها يوماً فى
أحدى قصائده حين يقول :

عبر أشجار الغار
تطير حمامتان دكناوان
كانت أولاهما الشمس
والأخرى كانت القمر
قلت لهما : أيا جارتيا ،
أين قبرى ؟
قالت الشمس : فى ذيلى
وقال القمر : فى حلقى •



ما وراء الحادث

لم يكن للوركا أى انتماء حزبي محدد ، فهو كمعظم الفنانين يجب أن يكون حراً لا يقيدده قيد ثقيل يشل حركته وتفكيره ، إذ كان الإنسان هو هدفه ، وأعظم به من هدف • غير أنه ككل فنان مرهف الحس لا يمكن أن ينفصل عن القضايا الانسانية العامة فى كل زمان ومكان : قضايا العدالة والحرية والحب والخير • وهكذا كان يقترب بوجوده وفنه من الشعب وقضاياه ، ومن الفقراء والمحررين والبرّساء والمظلومين •

غير أن هذا « الالتزام الانسانى » الذى لا يستطيع أى فنان أصيل إلا أن يحتضيه ، لم يكن ليرضى أفراد الفريق المحافظ ، الذين يرون فى مبادئ ذلك الالتزام انتقاص لسلطتهم وحقوقهم وممتلكاتهم • • كذلك فقد حملت روح الفن شاعرنا على السير فى درب الحداثة أيامها وتبدت على شكل ثورته على بعض التقاليد المرعية – من التزام بالعادات والأعراف المرعية والورع الدينى – واستهانته بها ، وتبنيه للغريب من السلوك والملابس ، مما كان يملأ صدور بعض أهل بلده غرناطة – من الأثرياء والاقطاعيين المحافظين – بالاستهجان والاحتجاج • ونضيف الى هذا مهاجمة الشاعر فى أعماله الفنية ، للسلطة التى تحد من حرية الإنسان ، وقد تبدت هذه السلطة أكثر ما تبدت فى الحرس المدنى الذى ناله الكثير من الانتقاد والهجوم فى كثير من قصائده •

كل ذلك قد ساعد على رسم صورة معينة للشاعر – ان لم تكن بوصفه تقديمياً صرفاً – فعلى الأقل بكونه لا يسير على نهج المحافظين

التقليديين ولا يتعاطف معهم ، بل يتعاطف مع الأهداف التقدمية التي تناصر الفقراء والمحربين والمستضعفين . وقد ساعد ذلك على تصنيف الشاعر - من قبل النفوس الحاقدة التي يعميها الحسب والغيرة - ضمن تصنيفات سياسية معينة ، حتى إذا انفجر بركان الانقلاب وسالت الدماء أنهارا ، أدرج الشاعر ضمن من يحرص قادة الانقلاب على ضرورة تصنيفهم . وأدى كل ذلك الى النهاية الفاجعة التي وصفناها سابقا .

وقد انفجر خبر مصرع الشاعر في وسط هذه الظروف السياسية المضطربة في اسبانيا فكان له دوى هائل في العالم بأسره . ونشرت الصحف الجمهورية في مدريد النبا كدلالة على وحشية مدبري الانقلاب وعدم انسانياتهم ، التي جعلتهم لا يفرقون بين برئ ومذنب ولا يميزون الشخصيات التي تعزز بها البلاد . ولكن صحف العالم رددت النبا بوصفه خسارة عظيمة منى بها الأدب والشعر ، اللذان لا يعرفان مكانا ولا زمانا . وسارع اتحاد القلم الدولي P.E.N. ممثلا برئيسه الكاتب والمفكر المشهور ه . ج . ويلز بإرسال برقية يستفسر فيها عن مصير الشاعر ، ولم يتلق الا بضع سطور مبهمة بتوقيع الكولونيل « فالديس » محافظ غرناطة ، تقول : « لا أعرف مكان السيد فديريكو غرسيه لوركا » !

وقد نعى الكتاب والفنانون مصرع الشاعر في قصائد ومقالات اشتهرت في تاريخ الأدب المعاصر ، منها مراثيات لبابلو نيروزا . وأنطونيو ميثاور ، ورفايل البرنى ، وميجيل أرناث ، وغيرهم كثيرون . كما كتب عدد من الشعراء العرب في فضل لوركا وعن مصرعه الغاشم ، منهم صلاح عبد الصبور ومحمود درويش وعبد الوهاب البياتي ونزار قباني .

وكان الصحفيون والكتاب قد تناقلوا خبر مصرع لوركا بوصفه عملا من أعمال قادة الانقلاب الملكي ، ولكن سلطات الانقلاب ظلت تتجاهل هذا الأمر ، بل وتتعمد التشويش عليه باشاعات بأن الشاعر قد قتل في برشلونة على يد الشيوعيين ، الى أن لم يعد في

الامكان تجاهل الموضوع ، فكان أن أجاب الجنرال قرانكو على سؤال لأحد الصحفيين عن مصرع لوركا - فى مقابلة صحفية فى نوفمبر ١٩٣٧ - بما يلى :

« لقد ثار حديث طويل فى الخارج عن كاتب غرناطى ، الذى لا أعرف أنا مقدار شهرته خارج الحدود .. والحقيقة أنه فى اللحظات الأولى من الثورة فى غرناطة ، مات ذلك الكاتب بعد الخلط بينه وبين المنشقين . انها من الحوادث الطبيعية فى الحروب .. ولقد كان فقده - بوصفه شاعرا - مما يؤسى له . وقد استغلت الدعاية الشيوعية تلك الحادثة لاثارة عالم الفكر والثقافة ، غير أنه لا أحد يذكر فى مقابل ذلك كيف اغتيلت شخصيات أخرى كثيرة فى الجانب الآخر .. »

وظلت هذه هى الرواية الرسمية عن الحادث ، بأنه كان نتيجة أحداث الحروب التى يروح فيها البريء أحيانا ، حتى أن اشعار وفاة الشاعر ، الذى عملت أسرته على استصداره من بلدية غرناطة لمواجهة المسائل الادارية من ارث وخلافه ، يذكر سبب وفاته على أنه « نتيجة جروح ناشئة عن الأعمال الحربية ، حيث عثر على جثته فى اليوم العشرين من نفس الشهر (أغسطس ١٩٣٦) فى الطريق الموصل بين « قرنار » و « الفقار » .



الشمس تشرق من جديد

بعد انتصار قوات فرانكو الملكية وسيطرتها سيطرة كاملة على اسبانيا كلها فى عام ١٩٣٩ ، ظل اسم لوركا حتى عام ١٩٤٩ محرما ذكره فى أى صحيفة أو كتاب يصدر فى اسبانيا ، ولم تكن ثمة عروض لمسرحياته ، ولا ذكر له فى كتب الأدب الاسباني الحديث التى تدرس فى المدارس والجامعات الاسبانية . وشهدت هذه الفترة أيضا اندحار الفاشستيات الألمانية والايطالية واليابانية ، وانقسام العالم الى معسكر ليبرالى وآخر اشتراكى . ونظر كل من المعسكرين الى نظام فرانكو بوصفه أثرا من آثار فاشستية الثلاثينات ، وتكونت جمعيات وروابط من الأسبان المنفيين فى الخارج للعمل على اسقاط ذلك النظام بكل الوسائل . ولذلك كان طبيعيا أن ينظر الى لوركا بوصفه نجما من نجوم الحرية ، الى جانب فضائله فى عالم الأدب والشعر والفن . وقد دفعت هذه الظروف المتعددة بدور النشر فى جميع أنحاء العالم - عدا اسبانيا - الى التسابق فى اصدار كتبه وترجماتها الى اللغات الحية ، والى البحث عن مخطوطات أعماله التى لم تنشر لاصدارها ، ودفعت الفرق المسرحية الى ادخال مسرحيات لوركا ضمن برامجها على الدوام . وهكذا ظهر فى عام ١٩٤٠ « ديوان التماريت » يضم آخر قصائد لوركا ، ونشره لأول مرة المعهد الاسباني بنيويورك . كما صدر فى العام نفسه - بالمكسيك - ديوان « شاعر فى نيويورك » وفى عام ١٩٤٥ ، عرضت لأول مرة مسرحية « بيت برناردا ألبا » فى بوينس آيرس بالارجنتين . وهى من المسرحيات التى أعطاها مؤلفها عنوانا جانبيا آخر هو « دراما عن النساء فى القرى الاسبانية » وقال عنها ان فصولها

الثلاثة تهدف الى تقديم « وثيقة فوتوغرافية لقرى اسبانيا » • وتحكى المسرحية قصة بيت ريفى يضم نساء فقط : أم مسيطرة صارمة ، وخمس بنات ، وخادمقان ، يعيشن جميعا فى ظل حداد على رب البيت الذى مات لقوه عند بدء أحداث المسرحية • وتصور الأحداث رد فعل البنات الخمس تجاه مصير العزلة والحداد الذى تفرضه عليهن أمهن برناردا ألبا ، وتجاه القسوة التى تطبق بها الأم معايير الشرف الاسباني التى تتسم بالضرارة والحزم • ويزيد من هذا كله التوتر الهائل الذى يفرضه جو الريف المليء بالاشاعات والأقاويل • وتسير الأحداث - كما فى كل تراجيديات لوركا - الى نهاية محتومة ، من موت الابنة الصغرى التى تنتحر بعد ضعفها أمام خطيب أختها الكبرى وبعد أن تعتقد خطأ أن الأم قد قتلته • ولكن كل ما يهم الأم فى هذا أن ابنتها قد ماتت دون أن تفقد شرفها •

وظل اسم لوركا مبعدا عن وطنه حتى عام ١٩٤٩ ، حين بدأت بوادر المصالحة بين العالم الليبرالى واسبانيا فرانكو ، بعد أن تبين فشل الجهود التى بذلت لتغيير النظام فى اسبانيا ، فعملت الدول الغربية على كسبها الى جانبها فى صراعها ضد العالم الشيوعى • ومع تلك البوادر ، نشر الشاعر « لويس روساليس » - صديق لوركا وآخر من رآه من الأصدقاء على قيد الحياة - بعض القصائد التى لم تنشر من قبل للوركا ، فى مجلتيين أدبيتين اسبانيتين ، وفى عام ١٩٥٤ ، أصدرت دار نشر « أجيلار » - كبرى دور النشر الاسبانية - أول طبعة من الأعمال الكاملة للوركا • وقد خضعت التعليقات على حياة الشاعر فى هذا السفر لرقابة صارمة ، بحيث جاء فى نهاية الدليل التاريخى لحياة الشاعر سطر واحد مبهم ، كما يلى :

١٩ أغسطس ١٩٣٦ : يموت •

وقالى بعد ذلك نوبان الثلوج فى وطن الشاعر تجاهه ، الى أن لم يعد ثمة كتاب مدرسى أدبى يخلو من ذكر لوركا ووضعه الممتاز فى تاريخ الأدب الاسباني الحديث • وتتابع ظهور أعمال مجهولة له ، منها مسرحية « الجمهور » وأوبرا كوميدية بعنوان « الممثلة لولا » كان لوركا قد كتبها كيما يعد موسيقاها « مانويل دى فايلا » ولم يتم المشروع •

وقد لمس كاتب هذه السطور مدى انتشار أعمال الشاعر ومسرحياته في اسبانيا ابان اقامته في مدريد في الفترة من ١٩٦٩ - ١٩٧٤ خلال السنوات الأخيرة من حكم فرانكو ، حيث كان انتاجه يعرض بصورة عادية ، مع توفر جميع الكتب الأجنبية التي تتناول ظروف مصرع الشاعر في مكتبات اسبانيا .

ولكن تتويج اعتراف البلاد بشاعرها العظيم لم يأت الا بدءا من عام ١٩٧٦ - بعد وفاة الجنرال فرانكو وانتهاج خليفته الملك « خوان كارلوس » النهج الديمقراطي في حكم البلاد - حين اقيم مهرجان فنى كبير في غرناطة في ذلك العام احتفالا بذكرى الشاعر حيث تبارى المحققون في الاشادة بذكره والمطالبه بتخليد ذكره على صورة نصب تذكارى يقام في بلده . ومن المظاهر الأخرى الهامة ، صدور طابع بريد تذكارى تكريما للشاعر وتخليدا لذكراه ولمكانته في تاريخ الأدب الاسباني الحديث .

وهكذا مهما طال الزمن ومهما تضافرت الظروف المعاكسة على اخفاء أقدار الأصلاء ، فلا بد أن تنتشع السحب آخر الأمر وتبرز الحقيقة أمام العيون . ولعل خير ما نختم به هذا الكتاب عن الشاعر الذى مرق كالشهاب فى سماء الأدب العالمى ثم ترك وراءه نورا باقيا على مر العصور ، هو القصيدة التى رثاه بها . غداة مصرعه صديقه الشاعر « بابلو نيرودا » بعنوان « أنشودة الى لوركا » :

لو أمكننى أن أبكى من الخوف فى بيت مهجور
لو أمكننى أن أنزع عينى وأكلهما
لفعلت ذلك حزنا على صوتك البرتقالى المتشع بالسواد
وحزنا على أشعارك التى تهب صارخة .



لأجلك صبغت المستشفيات بالزرقه نوافذها
وانتشرت المدارس والأحياء المطلة على البحار

ونما الريش فى أجساد الملائكة المتخفة بالجراح
 وغطت الزعائف الأسماك السماوية *
 لأجلك
 طارت القنفاذ الى السماوات العلى *
 لأجلك امتلأت محلات الخياطين ذات الأتسجة السوداء
 بالملاعق وبالدماغ
 وابتلعت شرائط حمراء
 وصرعت بعضها البعض بالقبيلات
 واتشحت بالملابس البيضاء *



حين تحلق طائرا متشحا بالملابس الخوخية
 حين تضحك ضحكة عيدان الأرز يعصف بها الريح
 حين تغنى فتزه العروق والاسنان
 والحناجر والأصابع
 أموت أنا من فرط حسرتى على عذوبتك
 أموت على البحيرات الحمراء
 التى تحيا فيها وسط الخريف
 مع الفرس المنهار والاله الذى يثرف دما
 أموت على المقابر التى تسرى كالأنهار الرمادية
 بميامها وقبورها
 فى الليل كأنها أجراس غرقى
 أنهار كثيفة كأنها عنابر جنود مرضى
 تتحول فجأة على حدود الموت
 الى أنهار ذات أرقام مرمية

وتيجان متعفنة وزيت جنازية •
أموت من أجل أن أراك
ترقب في الليل مرور الصليبان المظمورة
واقفا تبكى
لأنك تبكى في وجه نهر الموت
مهجورا ، مثخنا بالجراح
تبكى باكيا ، وعينك
مفعمتان بالدموع ، بالدموع ، بالدموع



لو اننى استطعت وحيدا في الليل
أنى أجمع النسيان والظلال والدخان
وأنشرها فوق القطارات والبواخر
من خلال قمع أسود
بينما أمضغ الرماد
لفعلت ذلك من أجل الشجرة التي تنمو معها
من أجل أعشاش المياه الموشاة التي تجمعها
من أجل اللبلاب الذي يغطي عظامك
ويبوح لك بأسرار الليالى •



مدائن نفوح منها رائحة الأبرص المبتلة
تنتظر ظهورك منشدا بصوتك الأجش
بينما تتبعك
سفن صموته محملة بالعتبر

وعصافير خضراء تبنى أوكارها فى شعرك
 وثمة قواقع وأيام وصواري وأشجار كرز
 تدور وتلف
 حتى تصل الى رأسك الشاحب
 ذى العيون الخمسة عشر
 وفمك ذى الدم الغريق *



لو استطعت أن أملا البلاد بالأسود
 وأن أهدم الساعات من البكاء
 لقلت ذلك من أجل أن أشهد أمام منزلك
 مجيء الصيف بشفاؤه المحطومة
 مجيء العديد من الأشخاص متشحين بثياب الموت
 مجيء الأرض ذات البهاء الحزين
 مجيء المحارث الميته وشقائق النعمان
 مجيء حفارى القبور والفرسان
 مجيء الكواكب والخرائط تتزف دما
 مجيء الغواصين يغطيهم الرماد
 مجيء الملتمين يجرون العذارى
 وقد فاصت فى أجسادهن النصال الطويلة
 مجيء الجذور والعروق والمستشفيات والينابيع والتملات
 مجيء الليل
 ومعه الفراش الذى يموت عليه جندي مهجور
 وسط خيوط العنكبوت
 مجيء زهرة الكراهية ، والوخزات

مجيء السفائن المعصرة
مجيء نهار عاصف وأطفال
مجيء أنا ، ومعى أوليفر
ونورا ، وفيننتي الكساندري ، وداليا ، وماروكا ،
ومالفا ، ومارينا ، وماريا لويزا ، ولاركو ،
وروبيا ، ورافاييل ، واوجارتي ،
وكوتابوس ، ورافاييل البرتي ،
وكارلوس ، ويبيي ، وماتولو التولاجيري ،
وموليناري
وروساليس ، وكوتشامندس ،
وآخرون غابوا عن ذاكرتي



تعال أضع التاج على هامتك
يافتى الأصحاء والفراشات
أيها الفتى النقي
كانك الزنجى البارق الطليق ابدا •
تعال نتحدث سويا
الآن ، حيث لا أحد يقعى بين الصخور
نتحدث ببساطة
كعادتنا أنا وانت •
ما فائدة الأشعار لو لم تكن من أجل الندى ؟



ما فائدة الأشعار لو لم تكن من أجل ليلة مثل هذه الليلة ؟
حيث تبعدنا خنجر مرير ،

لذلك اليوم
لذلك الشفق
لذلك الركن المحطوم
حيث يتهدد للموت فؤاد الانسان الكسير ؟



في الليل فوق كل شيء •
في الليل ترصع السماء أنجم كثيرة
كلها في محيط نهر واحد
كأنها شرائط معلقة
على نواقد البيوت التي تزخر بالمساكين •



ربما مات لهم قريب
ربما فقدوا وظائفهم في المكتب •
في المستشفيات ، في المصاعد ،
وفي المناجم
تقاسى الخلائق وقد أثقلتها الجراح
وثمة عزم وأنين في كل ناحية
بيئما الأنجم تجرى في محيط نهر لا نهاية له
ثمة أنين طاغ يصاعد من كل نافذة
والأبواب قد تهاوت من الأتات
والغرفات ابتلت من الأتئين
الذى يأتي في موجات تبتلع الأبسطة



فديريكو !
انك ترى الدنيا الآن
ترى الطرقات والحمض
والوداع على أرصفة المحطات
حين يرفع الدخان أطواقه الحاسمة
الى حيث لا شيء
سوى الفراق والأحجار والقضبان الحديدية •



مئات من الناس
يتساءلون فى كل ناحية
هناك الضرب الدامى ، والثائر ،
والخائر ، والبائس ، وذو الأظافر المورقة ،
وقاطع الطريق يحمل أحقادَه فوق كتفيه •



هكذا الدنيا يا فديريكو
هالك الأشياء التى يوسع صداقتى أن تقدمها لك
صداقة الرجل الكئيب الرجولى •
لقد علمت الكثير من الأشياء بنفسك
ولسوف تعلم أشياء أخرى
تأتى فى بطء •



مراجع الكتاب

- Federico García Lorca :
Obras Completas, Aguilar, Madrid, 1972.
- José Luis Cano :
García, Lorca, Destino Libra, 1974.
- Francisco García Lorca :
Federico y su Mundo, Alianza Editorial, 1980.
- Mildred Adams :
García Lorca, G.B. Inc., 1977.
- Ian Gibson :
La Muerte de García Lorca , Ruedo Iberica, 1976.
- Marcelle Auclair :
Enfances et Mort de García Lorca, Editions du Senil, 1968.
- Claude Couffon :
Granada y García Lorca, Editorial Losada, Buens Aires, 1967.
- Edited by : Ildefonso — Manuel Gil :
Federico García Lorca, Taurus Ediciones, Madrid, 1973.

- Guillermo Díaz — Plaja :
Federico García Lorca, Espasa .. Clape, Madrid, 1973.
- Edwin Honig :
García Lorca, Jonathan Cape, London, 1968.
- Antony Beever :
The Spanish Civil War, Peter Bedrick Books, New York, 1983.

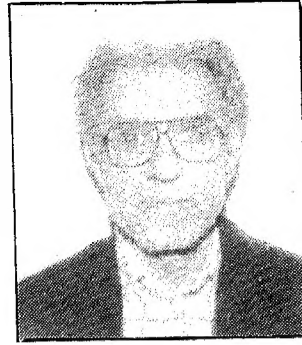
الفهرس

الصفحة	
٣	غرناطة
٧	المناخ السياسى والثقافى ونشأة الشاعر
٢١	حياة المدينة
٣٥	الى العاصمة مدريد
٣٩	مسرحية فاشلة وديوان ناجح
٤٥	صداقتان حميمتان
٧١	مهرجان اشبيلية وديوان العجن
٨٩	مجلة أدبية وأزمة نفسية
٩٣	التجربة الأمريكية
١١١	لاباراكا وفترة النضج المسرحى
١١٩	فاجعة مصارع الثيران
١٣٧	١٩٣٦
١٤١	غرناطة ولوركا
١٤٧	لوركا والتطهير الدموى
١٥١	الجريمة كانت فى غرناطة
١٥٥	عنا وراء الحادث
١٥٩	الشمس تشرق من جديد
١٦٩	مراجع الكتاب

رقم الايداع ١٩٩٢/٨١٧٨

I.S.B.N. 977 — 01 — 4162 — 9 الترفيم الدولي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



لوركا أشهر شاعر أسباني في العصر الحديث ، وقد خلف لنا من الشعر والمسرحيات والمقالات والرسم مما يضارع تراث جيل كامل من الفنانين . ويمزج الكتاب بين أحداث حياة الشاعر وبين ما أنتجه من أدب وفن ، ويقدم نماذج كاملة لأهم أشعاره وعرضاً وافياً لمسرحياته وكتبه ويقدم هذا الكتاب ولأول مرة في اللغة العربية شرحاً مفصلاً للوقائع التي أدت إلى مصبر لوركا غداة الحرب الأهلية التي عصفت بأسبانيا طوال ثلاث سنوات .

والمؤلف هو الأستاذ ماهر حسن البطوطي المتخصص في الأدب الأسباني والذي عمل سنوات طويلة في المعهد المصري للدراسات الأسبانية بمadrid ، وأصدر ترجمات عديدة لـ لوركا ، ومسرحية روزيتا العانس ، وله دراسات عديدة في الأدب الأسباني وأدب أمريكا اللاتينية .

Bibliotheca Alexandrina



0268885

مطابع الهيئة المصرية العامة لل

٢٢٥ قرشاً